المثقفون والمجتمع

☆

بعجب اناس من اهتمام بعض مثقفينا بشؤون بلادهم الاجتماعية والسياسية ، وقد طغت على بلادنا الروح الانعزالية وانعدمت الجرأة الأدبية ، حتى باتت وكأنها في مثل يوم الحشر « لكل يومئذ شأن يغنيه » ، وحتى اضحت كل بادرة من بوادر الاصلاح او الدعوة اليه ، موضع الريبة والتجني من اشخاص لا يحسون في انفسهم دافعاً قومياً الى مجابهة الباطل فينكرون ما يرون في غيرهم من شدة الاخلاص لشعبهم وشدة التمسك بالحق .

اما اولئك المثقفون المناضلون فقد عرفوا ان من واجبهم معالجة امراض شعبهم ، ومقاومة الظلم الذي يحيق به أو يتهدده ، والزام انفسهم اعباء هذا الواجب مهما كبرت وثقلت ، لانهم يستحون ان يعايشوا الظلم ولا يبذلون وسعهم للقضاء عليه . وهم في هذا تلامذة الفيلسوف بيدبا الذي بلغ من احترامه لنفسه وايثاره لخير شعبه ان قال : « ولقد كرهت ان يموت الملك او اموت ، وما يبقى على وجه الارض الا من يقول : انه كان بيدبا الفيلسوف في زمان دبشليم الطاغي فلم يرده عما كان عليه . فرأيت ان اجود بحياتي فاكون قد اتيت فيما بيني وبين الحكماء من بعدي عذراً » ، بل هم تلامذة الحديث الشريف الذي هتف بنا منذ الف واربعمائة سنة : « من رأى منكم منكراً فليقومه بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وهو اضعف الايمان » ، ولقد روي عن ابن مسعود : « قال رسول الله ان اول ما دخل النقص في بني اسرائيل انه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : « ياهذا اتق الله ودع ما تصنع به فانه لا يحل لك » ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك عن ان يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض » بل هم ورثة وتلامذة كل جمال وخير وحكمة في تاريخنا ، وفي سيرة كل مكافح للظلم ومناضل في سبيل الحرية .

فيا عجباً ، افي وقت حاجتنا العظمى الى مثل هذه القيم تحثنا على العمل وتحدونا الى النضال وترشدنا الى بناء مجتمعنا على اسس الحرية والعدل والمساواة ، تتبدل معاني القيم فيغدو التعالي عن الشعب ، والتهرب من الواجبات القومية ، وموت الوجدان الاجتماعي ، فضائل يشاد بها ويثنى عليها ؟ أفي مثل هذا الوقت من بناء حياتنا القومية يراد من المفكرين الانصراف الى « روحيات » هوائية غامضة ، كأن النضال الوطني ليس صورة الروح الانسانية في تمام وعيها وسموها وتضحيتها ، ويطلب من الادباء الانعكاف على ما يسمونه المتعة الفنية وحدها كأن الفن غريب عن هذه الدنيا التي تشهد غروب عصر واشراق عصر وعن هذا المجتمع الذي يصطرع فيه جيل رجعي هدام عتيق وجيل جديد صاعد بنّاء .

ونحن اذ نرجع البصر الى التاريخ العربي تطالعنا فيه صور مشرقة كثيرة من تراثنا القومي تراث الحرية والعدل والمساواة ، وتراثنا الثقافي تراث النضال الفكري والعملي من اجل الحرية والعدل والمساواة . فان كبار الائمة والمفكرين والادباء العرب قد علمونا بأقلامهم والسنتهم وسيرهم ، الخروج على الحكام الظالمين ، والجرأة في مقاومتهم مقاومة حازمة صادقة ، لان الكفاح في سبيل الحرية هو كفاح في سبيل الفكر ، وهو كفاح في سبيل الوطن ، وهو كفاح في سبيل الله .

ونحن المثقفين العرب الذين نعتز بهذا الميراث النضالي العظيم ، حريصون ايضاً على ان نذكره وان نذكر به ، وعلى ان نعمل به وندعو الى العمل به ، ولا سيما في هذه الايام . ففي معترك الصراع الذي نشهده اليوم بين قوى الحرية وقوى العبودية ، نرانا احوج ما نكون الى اعادة النظر في الاسس التي قام عليها ماضينا لكي نتعلم كيف ننهض بحاضرنا ونبني المستقبل الذي نريد .

ذلك ما يوحيه الينا تراثنا الفكري العربي التراث الذي خافه الظالمون والمستغلون والمستعمرون ، وحرصوا على ابادته وصرف الناس عنه ، من جنكيزخان الذي قتل العلماء في بلاد بخارى وما وراء النهر ، واحرق كتبهم ، وملأ بها خنادق المدن وهولاكو الذي افنى في بغداد الوفاً عديدة من العلماء وافراد الشعب ، واتخذ من الكتب ثلاثة جسور على دجله ، الى الدول التي خلفت الفاطميين في مصر فجعلت مكتباتهم وقوداً للحمامات! ان الكتاب الذي احرقه هؤلاء ، وأحرقه كل ظالم في كل مكان على وجه الارض ، نقدسه نحن ونتعلم منه سيرة الثائرين على الظلم .

قدري قلعجي

حديث النفس

بقلم الدكتور ابو مدين الشافعي

القاهرة

لا يفرغ احدنا من عمل الا ويسمع حديثاً تلقيه عليه نفسه ، فيه انفصال من المتكلم والسامع كما لو كان الشخص يسمع حديثاً عن غيره . وقد فطن الى هذه الحقيقة علماء المنطق وعلى رأسهم أفلاطون الذي وضع كتبه كلها في صورة محاورات ليساعد القارىء على تمثل الحديث . وقد جاء علماء العرب ووجدنا الصاوي في كتاب المنطق يصرح قائلاً : ان التفكير حديث وان الشخص المفكر يتحدث الى نفسه . وجاء ديكارت وأثبت ذلك وسمى كتابه عن المنهج Discours de la Méthode و صبحت كل العلوم و المباحث الفكرية تنسب في اللغات الأوروبية الى المنطق وذلك لان اليونان وحدوا بين اللغة والعلم واطلقوا عليهما اسماً واحداً « Logos » وترجم العرب ذلك بكلمة «منطق» التي تعبر عن التفكير وعن النطق . وحاولت ان انتهي الى اصل كلمة فكر وتفكير ولم اوفق الى ذلك ولعل من ينصرف الى التعمق في هذا الموضوع يجد صلة بين الفكر وعملية النطق .

وكان بحث موضوع الفكر واللغة من اختصاص المباحث المنطقية ولكنه انتقل في الاعوام الاخيرة الى الدراسات النفسية . وقدمت الامراض النفسية والابحاث التجريبية التي اجريت على الشواذ في النطق ، اطفالاً كانوا ام بالغين، ثروة نفسية ألقت ضوءاً على حقيقة حديث النفس .

نشاهد الطفل في أوائل السنة الثانية من عمره يعبر بصوت مرتفع عن كل الافعال التي يقوم بها فنراه يضع الحجرة وهو يمثل البناء قائلا : « الحجرة تقعد هنا » وعندما يريد نقلها يقول : « لا نتروحي هنا» وهكذا يمكننا ان نتتبع تفكيره بأعماله وبما يرافقها من اقوال . من هذه الملاحظة نستخرج الارتباط القوي بين الحركة الجسمية وبين النطق والتفكير . وقد لاحظ ذلك العلامة هنري فالون H. Wallon وصرح في آخر مؤتمر لعلم النفس ان التمييز بين هذه الظواهر من حيث الترتيب الزماني مستحيل في الوقت الحاضر .

وقد حاولت في رسالة « الانتباه الارادي » دراسة الصلة بين الاختيار الذهني وحركة التنفيذ . وقد ظهر عكس ما كان منتظر اذ وجدنا الطفل يختار في السنوات الاولى بيده في الوقت الذي

يكون فيه يفكر بذهنه فيظهر تردده في انتقال يده من موضوع الى آخر من موضوعات الاختيار .

واعتقد ان الامر كذلك فيما يختص بصلة الفكر بالنطق ، فيكون الجسم كله في اول الامر اداة للتعبير ولكن الطفل لا يلبث ان يركز حركات التعبير حتى يصل الى النطق الصريح ثم يتعود النطق الضمني الذي سميناه تفكيراً . وتستقل بعد ذلك عملية التفكير عن اللغة وكل انواع التعبير الجسمية التي ساعدت على ظهورها كما هو الشأن في الانفعالات وسائر انواع الشعور الاخرى .

وعندما يبدأ الاضطراب النفسي يظهر اول ما يظهر في اضطراب الحديث النفسي اذ نشاهد الشخص يحار بين آراء تفرض عليه فرضاً ويحاول ابعادها عن نفسه فلا يقدر . ولا يلبث هذا التضارب الفكري يتزايد حتى يصل الى الهذيان المسموع فينطلق الشخص معبراً عن موضوعات متضاربة لا ينهي اي واحد منها .

ويحدث الحرمان دائماً اضطراباً في الحديث النفسي ويبحث الشخص عن فرص التحدث ليصرف عن نفسه ، ونشعر بالمحروم يقحم موضوعه اقحاماً في كل حديث وبذلك تتكون الفكرة الثابتة التي اعتقد قوم وعلى رأسهم « ب . جانيه » استحالة القضاء عليها .

وكثيراً ما يتحول الهذيان الناتج عن اضطراب الحديث النفسي الى اضطراب في الافعال والسلوك — ويصبح الشخص في حاجة الى جهد لتوجيه حركاته نحو الهدف المنشود — وترى الاضطراب في السلوك يبدأ خفياً يصيب الناحية الارادية والتوجيه وينقلب سلوك الشخص الارادي الى سلوك تلقائي يقوم على ردود الافعال التي تثيرها المنبهات الخارجية الحالية بطريق المصادفة والاتفاق .

وقد يشتد الاضطراب الذي يلحق بالسلوك الى درجة تأتي الافعال فيها متعارضة مع اساس الحياة وذلك ما يسمى بالجنون ، وحار الطب الجسمي في علاج هذه الاضطرابات ولم يجد الطريق المؤدي الى التحكم في الافكار . واخذ علم النفس على عاتقه عبء تخفيف هذه الآلام . وقام فرويد في وجه الاطباء الجسمانيين يتحداهم وينكر عليهم موقفهم . وقال بالتحليل اللفظي للنفس واعتبر الحديث الحر الذي يقوم به المريض اهم الطرق للقضاء على الاضطرابات النفسية .

فلا شك بعد في ان التحليل النفسي وسيلة مهمة قد تفيد المريض في بعض الاحيان ، ولكني اعتقد ان التحليل النفسي لا يكون الا مرحلة من مراحل العلاج ، فالتحليل النفسي وسيلة للوقوف على الحديث النفسي الحقيقي الذي يقوم به الشخص في ايام الاضطراب ، والوقوف على نوع الانفكاك الموجود عند الشخص . وعلى المحللان يكشف اولاً وقبل كل شيء اتجاه الاضطراب النفسي هل هو منطقي ام انفعالي .

يمكننا بطريق ملاحظة السلوك مدة كافية تمييز اتجاه الاضطراب ولكن التحليل النفسي يمكننا ان نعرف هذا الاتجاه ، وعندما نتكلم عن اتجاه الاضطراب ، نقصد ايضاً مرحلة الاضطراب الذي يبدأ بالتعب او الانفعال ثم يصل الى الاضطراب المنطقي وينتهي باضطراب الفعل .

والمهم هو ان التحليل النفسي وحده لا يعيد للنفس توازنها . لان التحليل النفسي لا يمكنه ان يغير شيئاً في التوازن العام الا اذا كان سبب الاضطراب جهلاً بمبدأ من مبادىء الحياة . وقد يؤثر التحليل النفسي كايحاء ويترك آثاراً مؤقتة .

وظهر عجز العلاج النفسي بواسطة التحليل الفرويدي في كل ما يتعلق بالافكار الثابتة . وقد اعتقد قوم ان هذه الاضطرابات الفكرية من نوع خاص لا اساس لها من الناحية البيولوجية ، واتجهت كل محاولات العلاج الى الطرق اللغوية . وحاول الكثير من الاطباء النفسيين اقناع المريض بخطأ فكرته المتسلطة عليه . وليست هذه بالطريقة الجديدة لان الشخص المريض وحده يقوم بها في الحالات السوية ويعجز عنها في الحالات المرضية ، ومعرفة المريض لهذه الطريقة تجعله يحتاط كل الاحتياط ولا يستسلم الى الاقناع ويزيده ذلك تشبثاً بفكرته .

وهذه الطريقة متبعة ايضاً من الناس نحو المريض اذ نراهم يحاولون ابعاد الفكرة الثابتة عن المريض بالاقناع او بالنهي فيقولون للمريض : لا تفكر في هذا الموضوع وحاول ان تنساه ، ولاحظت أن مثل هذا الاتجاه في العلاج النفسي يثير غضب المريض لانه يذكره بعجزه بايقاف حديث نفسه الذي يدور كله حول هذه الفكرة . وكثيراً ما يستعمل الضغط من المجتمع فنرى الفكرة الثابتة ترجع في صورة جديدة .

وكل محاولات العلاج هذه لم تكن

للقيم وزناً لاسباب الفكرة الثابتة ، وكل الطرق السابقة وعلى رأسها طريقة التحليل الفرويدي تفرض ان الاضطراب الفكري مستقل عن الاضطرابات الجسمية، ولكن دراسة دقيقة للصلة بين الفكر والجسم تثبت ان الكثير من الحالات النفسية التي كانت تبدو مستقلة عن الحالات الجسمية هي في حقيقة الأمر مرتبطة ارتباطاً وثيقاً اذ يؤثر كل منهما في الآخر تأثيراً واضحاً .

واذا تأملنا مرض البارانويا واسبابه الاجتماعية التي اظهرتها الحربان الأخيرتان تبين لنا ان كلاً منا في حاجة الى الحديث مع الآخرين . وكل انعزال يعرض الشخص الى الاسراف في الحديث النفسي . وذلك ما لوحظ على المعقلين المنفردين في معسكرات ومعتقلات لا يوجد فيها من يتكلم لغتهم ويفهما . وكذلك السجين الذي يقضي عليه القانون بالعزلة التامة يشعر في آخر الامر بحديث نفسي قوي يتضح شيئاً فشيئاً لينقلب بعد ذلك الى فكرة ثابتة تدور في الغالب حول الخوف والوحشة والشعور بالاضطهاد . وليس من قبيل المصادفة ظهور الشعور بالخوف مع الفكرة الثابتة فالارتباط ناشىء من آثار العزلة في التفكير . فالعزلة تولد بطبيعة الامر شعوراً بالخوف وتأتي الفكرة الثابتة من اضطراب التفكير بعد انقطاع الحديث الاجتماعي المشترك وسيطرة الحديث النفسي المنفرد .

وهذه الطريقة في الفهم تقدم لنا طريقة في العلاج . لقد كان مستحيلاً التخلص من اضطرابات الأفكار الثابتة وما يتبعها من اضطرابات في السلوك .

وتعتبر البارانويا جنوناً خفياً لأن الشخص لا يشعر باضطرابه بل تراه يحافظ على قوة المنطق التي تزداد متانة بالحديث النفسي المنفرد، ولكن ذلك لا يمنع الشخص من ان يكون أسير الاوهام توجه نشاطه وجهة واحدة وتقيد كل افكاره وافعاله بربطها بالغاية الوهمية . وقد اعلنت كل المستشفيات العقلية اخفاقها في علاج امراض البارانويا وذلك لان دخول المريض الى المستشفى اكبر عائق يحول دون شفائه فالمريض بالبارانويا فى حاجة الى وسط اجتماعي يعرف كيف يؤثر عليه ويعطيه فرصة القيام بوظيفة الحديث الاجتماعي الذي كان الشخص محروماً منه .

وقد قال كل رجال التحليل النفسي ان الاضطرابات التي تنشأ من الاخفاء (Refoulement) راجعة الى ما يتعرض له الشخص من حديث نفسي يدور حول الموضوعات التي يخفيها عن وسطه الاجتماعي . واذا كان التحليل النفسي عن طريق الانطاق يفيد في علاج بعض الامراض النفسية فذلك لانه يتيح للمريض الخروج من عزلته الفكرية ولهذا السبب لا تكون قيمة التحليل التنويمي نهائية بقدر ما هي تحضيرية . اي ان التحليل التنويمي يساعدنا على معرفة موضوع الحديث النفسي لترغم الشخص على التصريح بما كان يخفيه فلا يكون للتحليل التنويمي قيمة نهائية في العلاج الا اذا بعثنا الشخص على تناول موضوع الحديث النفسي المنفرد من حديث اجتماعي مشترك .

ويجب ان نقرب اضطرابات الحديث النفسي الناشىء عن الاسباب المذكورة من الحديث النفسي الذي تحدثه العزلة الفكرية او الشعورية عند العلماء والشعراء . كثيراً ما يكون العالم في ازمة نفسية لانه وجد مجالاً جديداً في بحثه ويحدث ذلك عنده نشوة فرح ويكون في حاجة الى اطلاع الآخرين عما يتمتع به من لذة . وكثيراً ما تكون الفكرة صعبة لا يستطيع عامة الناس ادراك اسرارها فيشعر العالم بعزلة تؤلمه وتجعله يقبل على الحديث النفسي . والى هذا السبب يرجع اغلب الاضطرابات الفكرية والسلوكية عند كبار العلماء والشعراء .

كل شخص في حاجة الى الحديث المشترك حتى يكون التفكير خاضعاً لقانون منطقي ينظمه . وعندما ينعزل الشخص تسقط هذه الرقابة وينفك التفكير ويبدأ الانحلال في الشخصية وسنرى في فرصة قادمة كيف ينتقل الاضطراب النفسي الى الاضطراب الجسمي لتظهر لنا الصلة بين الحديث النفسي والفعل الارادي .

ابو مدين الشافعي

بيت المغرب — القاهرة

كأس

لعمر ابو ريشة

●

يروى ان ديك الجن الحمصي قتل جاريته الحسناء حباً بها وغيرة عليها ، وجبل من بقايا جثتها المحروقة كأسه ، وكان ينشد بين شربه وبكائه أبياتاً من الشعر :

أجريت سيفي في مجال خناقها   ومدامعي تجري على خديها
روّيت من دمها الثرى ولطالما   روّى الهوى شفتي من شفتيها

« ديك الجن »

☆

دَعها : فهذي الكأس ما   مرّت على شفتي نديم
لي وقفة معها ، أمام   الله في ظل الجحيم
دعها !! فقد يشقيك فيها   لفحة البغي الرجيم
وتنفّسُ الشبح الشقيّ   على جذى حب أثيم
مالي أراك تطيل في   تأمل الطرف الرحيم
أتخالني أهذي ؟ وخمري   صحوة القلب الكليم
إشرب ! ولا تترك   جراح السر تعوي في رميمي !

كانت تغنيني وكنت   أحسّ بالنعمى تغني !
هيفاء ، لم يبلغ مدى   إغرائها وهمي وظني ..
كيف ارتضت دنياي دنياها على قلق وأمن
كيف استقتْ حبي وقصّت فيه أجنحة التمني !
ما غرّها مني ؟ وماذا   أبقت الأيام مني
ألشيب مرّ بلمتي   وأقام في عجزي ووهني
والشوق ، أحلامٌ ، مخضّبة تموت وراء جفني !

نادى هواها ، فالتفتُ   وما رددتُ له جوابا
وشبابها الظمآن ، بين يديّ يستجدي السرابا !
فوجمتُ ! مجروح الرجولة ، أخفض الطرف اكتئابا
ورجعت ، للأكواب ، أملأها   على غصص ، شرابا
وأعبّها حمىً من الأهواء ، تصطخب اصطخابا
فاذا دمي في مثل وهج الجمر ، يلتهب التهابا



بريشة الفنان الفريد بخاش

والنجمُ ، أسطعُ ، وهو يهوي عن سماوته اغترابا ! !

مالت عليَّ ، وطرفها   في يأسه يتضرعُ

وعبيرها ، مـا سال من   صدر الربيع ، وأمتع

فضممتهـا ، فتنهدت   غصصٌ ، وصكَّتْ أضلع

هي نشوةٌ ، لم يبق لي   من بعدها ما يُطمع

كم ظبيةٍ قعدت بعبء   جراحهـا تتوجع

لمـا رأت في خشفهـا   الجوعَ الملحّ يروّع

زحفت ، لترضعه ، ومـاتت ، وهو باقٍ يرضع ! !

***

نامت ! وخلفَ نديّ   جفنيها .. حياةٌ تحلم ! !

طوراً تقطب حاجبيهـا   تارة تتبسمُ

وعلى ارتعاش شفاههـا   الحمراء ، بوحٌ مبهم !

فدنوت اصغي ، علّهـا   في همسةٍ تتلعثم !

ورجفتُ .. خشية ان تطـالعني ، بمـا لا اعلم

ورجعت امشي القهقرى   وجوانحي تتضرم

وعلى خطاي ، ارى بقايا   سلوتي تتحطم ! !

نامت ! وجنح الليل جنّ   وغيرتي الهوجاء غضبى

انا لن اعيش غداً فأروي   قلبها الظمآن حبا !

من اين ؟ والدنيا طوت   أظلالها الفيحاء وثبا

ومراكب الايام ، شقتْ   جبهتي درباً فدرْبـا !

نامت ! واشباح الغد الباكي ،   أدفّهن رعبـا !

ايضم غيري ، هذه النعمى !!   متى وسدتُ تُربـا ! ؟

ويحي !! لقد جفّ الرضا رطباً   وضاق الكون رُحبا ! !

***

قبّلتهـا ! ! والليل ينفض   عنـه أسرابَ النجومِ

ومدامعي تجري ، وكفي   فوق خنجري الأثيمِ

هي وقفةٌ رعناء ، ضاق   بهولهـا حِلم الحليم ،

فحملتُ شلو ضحيتي   والنـار حمراء الاديم

وجبلت من تلك الجذى   كاسي ، ومن تلك الكلوم ،

وغداً أحطمها ، امام   الله في ظل الجحيم

فاشرب ، ودعها ، فهي ما   مرت على شفتي نديم ! !

عمر ابو ريشة

عبقرية الألم

بيتهوفن

بقلم أنطوان حمصي

« انا بالخوس الذي يعصر الخمرة السائغة للانسانية ويعطي الارواح النشوة الآلهية » – بيتهوفن

☆



من عالم الغيب البعيد وعلى صفحات الخلود ترتسم صورة قلقةصورة وجه غضنته الآلام يشع من عينيه بريق العبقريةالمقدس ، وانا اذ اقدم اليك هذه الصورة اعلم انها ستحوز على اعجابك .. ستسحرك هذه العبقرية الفذة .

في السادس عشر من كانون الاول عام ١٧٧٠ ابصر النور في كوخ حقير في مدينة (بون) طفل من اسرة فقيرة ربها سكير معدم وربتها امرأة مسكينة تعمل كخادم لتربح قوت اسرتها . في هذا الوسط الكئيب تفتحت عينا « لودفيك فان بيتهوفن » للحياة . . . فقر ، اب عربيد ، ام مسكينة ، هذا ما كان يحيط بعبقرينا ، فكانت طفولته مريرة تفتقر الى عذوبة الحياة العائلية التي توفرت لشوبان وموزارت ، فبدت له الحياة صراعاً بل مأساة هائلة . كان ابوه يسجنه في غرفة مع قيثارته ليرغمه على تعلم العزف ، فكاد يقتل فيه ميله الموسيقي للارهاق الذي كان يلقاه منه ، على انه بدأ في سن الحادية عشرة عمله كعازف في احدى الفرق وبدأ ينظم بعض القطع في سن الثالثة عشرة .

وما بلغ السابعة عشرة من عمره حتى فقد امه التي كانت مصابة بالسل وكان يتوهم انه مصاب بنفس المرض فاستولت عليه سوداوية هي أقسى من الالم ، كانت صدمته بامه قوية فأبوه لا يصلح لان يكون رب عائلة فكان عليه ان يرعى شقيقيه ولكنه وجد في اسرة « برونينغ » عزاء لا سيما في « اليانور الحسناء » وكان يعلمها الموسيقى فنشأت بينهما عاطفة جارفة على ان اليانور ما لبثت ان تزوجت من « الدكتور ويجلر » « Wegler » صديق بيتهوفن الحميم حتى ساعاته الاخيرة ، وعذبته ذكرى اليانور ردحاً من الزمن فكل شيء يذكره بها ، الامكنة ، ساعات النهار والليل حتى غادر بون الى فينا عام ١٧٩٢ .

وكانت الثورة الفرنسية قد انفجرت وطغت على اوربا واجتاحت معها قلب بيتهوفن وعبثاً حرك عليها النفوس باناشيده فانها قد ملكت قلبه وتركته متعلقاً بالمبادىء الجمهورية ، ولقد كان بيتهوفن يدرك قيمته ، فقد كتب في مذكراته عام ١٧٩٦ : « قليل من الشجاعة فان عبقريتي ستنتصر رغم هزال جسدي » وتقول عنه مدام « بيرنهارد » انه كان مدعياً الى درجة لا تطاق . ولكن اخصاءه كانوا يدركون اي طيبة تختفي وراء هذا الغرور الاحمق . فقد كتب الى ويجلر : « ... مثلاً ارى صديقاً في ضائقة فاذا لم تسمح لي محفظتي بمساعدته فإني أكب على عملي حتى انقذه من ضائقته ، هل تشعر معي كم هو ممتع هذا العمل ؟ » وكتب اليه ايضاً : « . . . ان فني مكرّس للفقراء » .

على ان الآلام ما لبثت ان طرقت بابه فقد بدأ الصمم بين ١٧٩٦ – ١٨٠٠ عمله في بيتهوفن ولكنه كتم هذا عن الناس واجتنب المجتمعات حذر الفضيحة ولكنه لم يستطع الكتمان طويلاً فباح بسره لصديقين هما « القس امـاندا » و « الدكتور ويجلر » فأثر هذا في اتجاهه الفني فاتخذ انتاجه طريقاً غير الطريق الذي اتبعه قبل عام ١٨٠٠ فكان انتاجاً حزيناً كئيباً .

ان النفس اذا ارهقتها احزان الحاضر وآلامه جنحت الى الذكرى تنهل من معينها العذب وتعب من رحيقها المسكر وقد كان بيتهوفن ذا نفس حساسة فنانة اذا بكت كان بكاؤها غناء مستعذباً واذا أنّت كان انينها لحناً موسيقياً خالداً وهكذا رجع بيتهوفن الى ذكريات الصبي ينظم منها الحانه البديعة .

وكأن عبقرينا قد خلق للآلام فما يندمل له جرح حتى تتفتح في قلبه جروح وجروح ، فقد احب « جولييتا جكسياردي » ولكنها كانت خبيثة انانية فعذبته كثيراً ثم تزوجت سواه وكانت هذه الصدمة حرية بان تقتل بتهوفن وهو الضعيف البنية لولا عزيمته الصلبة التي لا تعرف القنوط لكنه ارسل صرخة ثائرة كانت رسالته الى شقيقيه (كارل) و (جوهن) . بدأها بتأكيد : « هذه الرسالة للقراءة ولتنفيذ فحواها بعد موتي » .

مما نلاحظه في موسيقى بتهوفن الروح العسكرية والحربية ولعل مرجع هذا الى نفسيته الثورية يومذاك وقد ألف لنابوليون سامفونية يمجد فيها عمله في سبيل الحرية ولكنه حولها الى « سامفونية البطولة » لما رأى نابوليون كسواه من الطامعين الفاتحين .

وفجأة انقطع عن نظم الألحان الحماسية فقد ظهر في الافق البعيد بصيص من الامل فقد خطب عام ١٨٠٦ «تيريز برونزويك» وكانا يتبادلان الحب حتى ايامها الاخيرة ولكن هذه الفترة الهادئة لم تستمر طويلاً فما لبثان عاد الى الموسيقى العنيفة فألف السامفونية الريفية والعاصفة التي استوحاها من عاصفة شكسبير وهي في الحق تعد آية في الروعة والقوة .

ولا نعلم ما الذي فرق بين الحبيبين . اهو فقر بيتهوفن ام تفاوت المركز الاجتماعي ولكن نرجح ان بيتهوفن ثار على الانتظار الطويل الذي فرض عليه لا سيما وان احداً من اسرة برونزويك لم يرض عن زواجه بتيريز سوى شقيقها الكونت برونزويك صديق بيتهوفن وهكذا انفصلا ولكنهما بقيا متحابين فقد توفيت تيريز عام ١٨٦١ وقلبها لم يخفق لسوى بيتهوفن وكانت قد اهدته رسمها وكتبت عليه «الى رجل العبقرية العظيم «ل.ب» وقد فاجأه صديق له في العام الاخير من حياته يقبل هذا الرسم والدموع تسيل من آقيه مدراراً وكان يقول لنفسه « لقد كانت جميلة ونقية كالملائكة» فانسحب الصديق ازاء هذا المشهد المؤثر ثم عاد اليه في اليوم نفسه فوجده يعزف على البيان بهدوء ودعة فقال له : اليس على وجهك اليوم الملامح الشيطانية يا صديقي ، فأجابه بيتهوفن ذلك لان طيف ملاكي قد زارني .

وقد التقى بيتهوفن بغوته في « توبلتز » ١٨١٢ وكانت « بيتينا برانتانو (Bettina Brentano) قد كتبت الى جوته – Gœthe – :

« لا ابالغ فهذا الرجل – اي بيتهوفن – سبق عصره كثيراً .

وهكذا كانت حياة بيتهوفن منذ عام ١٨١٤ حتى موته يتنازعها المجد والشقاء فقد بلغ قمة مجده اثناء انعقاد مؤتمر فينا اذ نظم الحاناً حماسية وان لم تكن من احسن قطعه فقد كانت تلائم نفسية الشعب في ذلك العصر القلق . ثم تلا ذلك العهد اتعس حقبة في حياة بيتهوفن فما كانت فينا لتحبه في يوم من الايام وكان هو يبادلها الكره حتى انه اعتزم مغادرتها الى بلاط جيروم بونبارت في وستفاليا عام ١٨٠٨ لولا ان فئة من الارستقراطيين عز عليهم تشويه سمعة بلادهم اذا غادرها عبقريها الى بلاط غريب فعرضوا راتباً سنوياً لقاء بقائه في فينا على ان هذا الراتب لم يكن ليدفع بانتظام ثم انقطع دفعة واحدة وانصرف الناس عن بيتهوفن واشتد به الصمم حتى انقطعت علاقته بالناس الا عن طريق الكتابة وتشتت اصدقاؤه او ماتوا فانطوى على نفسه يفتش في الطبيعة عن عزائه فكان يتنزه كل يوم خارج اسوار فينا عاري الرأس متعرضاً لحرارة الشمس والأمطار . ثم جاءت المتاعب المالية تزيد في بلواه فقد آلمه صرف مواهبه في سبيل الرزق ويوي (سوفر) عنه انه كان يضطر للمكوث في البيت اياماً بسبب حذائه الممزق وكان يقيم معه ابن اخيه كارل الذي مات بالسل وكان يسليه عن اشجانه لكنه كان عاقاً فهجره وقت حاجته الماسة اليه ، وكانت رسائل بيتهوفن تفيض بالالم والحنان وقد عاد اليه اخيراً قبل موته بقليل .

ثم يلي ذلك آخر فترة في مجد بيتهوفن فقد ألف سمفونيته التاسعة وعزفت في فينا في السادس عشر من شهر نوار عام ١٨٢٤ وكان النجاح باهراً واستقبل الناس بيتهوفن بالتصفيق خمس مرات مع ان التقاليد المرعية كانت تقضي بالاقتصار على ثلاث مرات للاسرة المالكة فاضطر رجال الامن على التدخل لمتابعة الهتاف وسالت دموع الفرح على وجنتي بيتهوفن واغمي عليه سروراً ولكن هذا الانتصار كان معنوياً فلم يربح منه شيئاً ولو يسيراً فوجد نفسه مرة اخرى فقيراً معدماً ولكن فكرة الانتصار على المه كانت تبعث في روحه النشوة .

لقد كان من المستحيل ترويض هذه القوة الجموح التي تمكنت من روح بيتهوفن فقد بث فيها كل ألم نفسه ويلاحظ ان قطعه الموسيقية الاخيرة كانت تنطق بالسخرية اللاذعة والازدراء والفرح ايضاً ولكن بيتهوفن ان رقص فما يرقص طرباً . بل كان رقصه من نوع رقص الديك الذبيح .

واخيراً جاءت الكارثة فقد اصيب بيتهوفن بذات الجنب إثر عودته من سفر شاق في الشتاء وكان اصدقاؤه بعيدين عنه فكلف ابن اخيه بدعوة الطبيب ولكن الفتى الطائش نسي الامر ولما تذكر وجاء بالطبيب بعد يومين كان المرض قد استحكم من بيتهوفن ولكنه ظل يكافح الالم ثلاثة اشهر . . . وفكر في ماضيه . . . في رفاق صباه واصدقائه وصديقاته فكتب الى الدكتور ويجلر : « كم بودي لو احادثك ولكني ضعيف جداً ولم يعد في وسعي سوى ان اضم طيفك الى قلبي » وقد كان جلداً على الآلام . ولما كان على سرير النزع الاخير بعد ثلاث عمليات جراحية وفي انتظار الرابعة كتب : « اني أصبر واقول : ان كل ألم يحمل معه شيئاً من الخير . » .

ولكن الخير كان هذه المرة في الخلاص . . كان في « خاتمة المهزلة » كما اسماها بيتهوفن وهو يلفظ الروح في السادس والعشرين من آذار عام ١٨٢٧ .

لعمر الله لقد كانت خاتمة المأساة . لقد ولد بيتهوفن شقياً .
ولقد عاش شقياً . ومات حين وافاه الاجل شقياً .
واليوم بعد قرن وربع قرن نحني الهامات اجلالاً امام « عبقرية الألم » .

دمشق

انطون حمصي

طفل

بقلم يوسف الشاروني

القاهرة

كنت في طريقي الى المدينة العظيمة .. كان طريقي هادئاً مظلماً وبارداً . وهناك ، من بعيد كانت المدينة وسط الظلام بأنوارها المتلالئة ومنازلها الشاهقة كبغي خرجت في حالكة الظلام ، متبرجة بحليها وقلائدها تنتظر عشيقها .

وذكرت يوم كنت قد صممت على ان اترك عزلتي وابدأ رحيلي نحوك ، وفي الطريق اليك ادركت أنني قد اعود ملآن بعطرك ، مغموراً بنور عينيك ، كما انني قد أعود فارغاً . لكنني قد صممت على ان اترك عزلتي ، فواصلت رحيلي ... ولقد عدت فارغاً .

وذكرت يوم ادركت انني لست سوى واحد من ملايين البشر ممن خاضوا غمار هذه التجربة الانسانية المقدسة ، وأنني لست سوى واحد من ملايين البشر ممن عانوا هذا الالم الانساني الرائع المجنون . يوم أدركت ان تجربة الحب لا يمكن ان تتعلمها الانسانية من التاريخ ، بل على كل فرد منا ان يخوضها من جديد وحده حتى النهاية المحتومة .

وهكذا ظللت اسير حتى اشرفت على المدينة . فلمحت على جانبي الايسر نصب قبور مبعثرة ، اما على جانبي الايمن فقد كان النيل لا يزال جارياً بزرقته الداكنة . ولم تكن ثمة نجوم في السماء ، ولم تكن ثمة أصوات على الارض ، حتى نقيق الضفادع ! كان كل شيء هادئاً مظلماً وبارداً . وكنت اعلم ان اهل المدينة يشيعون هنا كل يوم عشرات من احبائهم واصدقائهم ، من اخوانهم وآبائهم وابنائهم ، ثم لا يلبثون ان يعودوا الى المدينة كي ينسوا ، ولا يلبثون ان يصنعوا لهم أحباء من جديد وأصدقاء من جديد .

وأخذت تنبعث في نفسي قصص كنت قد سمعتها في طفولتي عن كائنات من غير الناس لم يستطيعوا ان يغادروا مدينة الاموات بعد ما رقد أصدقاؤهم من الناس فيها هناك ، فظلّوا يحومون حول قبورهم حتى قتلهم الهزال والاخلاص ، الاخلاص للموتى ! .

وبدأ العدم يتكشف امامي شيئاً فشيئاً ، حتى أزعجتني هذه الفكرة ، ان الحياة واحدة ، واحدة فقط ، وانا افترقنا ، وبذلك لن نلتقي ابداً يا حبيبتي . سننتهي ذات يوم ، سنصبح جثثاً صامتة وعظاماً نخرة ونسياناً وعدماً ، هل تصدقين ؟ وكانت اللانهاية ، اللانهاية الهادئة المظلمة الباردة ، وقد احسستها الآن واضحة في

نفسي ، حتى شعرت امامهـا انني لست سوى شيء . . . . صغير صغير .

وكانت المدينة قد بدأت تتضح معالمها أمامي ، فمررت بأكواخ الضواحي حيث اشتعلت جذوات من النار ، فاحسست الحياة قد بدأت تدب . . . وذكرت أيام حبنا ، ايام كنت اكتب اشعاري فيقرؤها الجميع ، لكن ثمة لوناً سحرياً عجيبـاً ، لا يمكن وصفه ولا يستطيع احد سواك ان يلمحه ، كان الحب يغشي به اشعاري لديك يوم كان كل انتصار لي هو انتصار لك ، يوم كنا نحب بعضنا بعضاً يا عزيزتي . اما اليوم فما عدت امامك سوى طفل ، وكل انتصار لي اهانة لك ، وغدت اشعـاري لديك سخافة ، وكل فعل اقوم به حماقة .

واخذت ادلف من طريق الى طريق : لم اكن اعرف الى اين اسير ، لكني كنت احس طريقي . . . كنت ذاهباً الى قلب المدينة . كنت اريد ان افر من طيفك الهادئ ، المظلم البارد ، وقد كانت المدينة بمنازلها الشاهقة ومصانعها النابضة وجذواتها المشتعلة تجذبني نحوها في عنف . . . مررت بأكواخ وقصور ، وسمعت في ظلمة الليل اصوات عويل واصوات تهليل ، ولمحت من حين لآخر مشردين ينـامون على ارصفة المدينة العظيمة في كآبة وعزلة . كنت اتجه في سرعة نحـو قلب المدينة ، حيث النـاس يتزاحمون ويتكالبون . كانت الفتيات تعبرن متبرجات متعطرات مسرعات امام الرجال ، وكان الرجال يحدقون في نهم وشغف الى الفتيات ، ثم لا يلبث الجميع ان يواصلوا بيعهم وشراءهم . كانت المدينة عظيمة ، عظيمة جداً ، حتى فرحت بهذه الحياة النابضة ، فأخذت اغني وارقص كلما اقتربت من زاوية في طريق واطمأننت الى ان احداً لن يراني . . . كطفل صغير بريء !

واخيراً تركت الزحمة والغرباء لاقصد الى طريق اعرفه جيداً ، كنت في طريقي الى منزلك . لم اكن ادري لماذا اتجه الى هناك ، وكل شيء مضى وقد عدت فارغاً ، غير انني كنت اتجه الى هناك ! كنت اعلم ان منزلك راقد في ضـاحية من ضواحي المدينة العظيمة ، بعيداً عن الصخب ، وبعيداً عن النور قليلاً . وكان رذاذ نوفمبر قد بدأ يسـاقط ، بينما اخذت تزحم عقلي الآن افكار عجيبة لا تمكن ان تخطر على انسان ، افكار مدهشة ومرهقة احياناً ، تنبعث من كهوف سحرية ومغاور رهيبة خرافية .

وكنت اعجب كيف يمكن ان يستأثر بنا انسان واحد فقط ، يستوعب أفراحنا واحزاننا وكل خلجاتنا ، تماماً كما يستوعبنا اي فعل مخلص ، حتى انه ليترك آثاره في حركاتنا وتعبيراتنا : في طريقة خطونا او في رنين اصواتنا حين نضحك . وكيف يحدث لنا فجأة ان نجد بين ايدينا وهماً ميتاً نقدمه ، وان نجرؤ على ان ننبش اكفاناً وقبوراً كان اصحابها قد ماتوا من حياتنا منذ زمن بعيد . وكيف نغوص من حين لآخر رغم انوفنا بين كثافات ماضينا المظلم المروع حيث ترقد ذكرياتنا العزيزة وجراحنـا المقدسة ، وهناك . . نهز الموتى علهم ان يستيقظوا ويعيشوا معنـا بضع لحظات اخريات .

وكان البرد شديداً ، والناس قد تعبوا من طول صخبهم ، فـأخذوا يطفئون انوارهم ويأوون الى مضاجعهم . وهكذا بدأت المدينة العظيمة تنام . لكن الافكار العجيبة المدهشة كانت قـد بدأت تفقد اسطوريتها كلما اخذت اقترب من منزلك ، وكانت قد تركزت الآن حـول رغبة جنونية تملكتني حتى ارهقتني : ان اعود اليك وادفن رأسي في صدرك الدافئ ، المطمئن ثم ابدأ بكاء رائعاً متصلاً . كنت ادرك تماماً ان الامر ليس سوى حلم حزين ، لكنني كنت قد عودت نفسي منذ زمن بعيد ان اعاني مثل هذه الاحلام .

وكان صدى خطواتي مسموعاً بوضوح في عرض الطريق ، بينما اخذت خفقـات قلبي تسرع وتتلاحق في عنف ، وبدأ كل شيء يرتجف ويضطرب امامي : الماضي والحاضر ، والمستقبل ، وطريقي ايضاً ، كأنما انا مقبل على تجربة حب من جديد . . حتى اذا مررت بمنزلك رأيتك — ويا للصدفة العجيبة — واقفة في ثوبك الاحمر الداكن تودعين صديقتين . لم اكن لأستطيع ان اسمع ما تقولين ، غير اني كنت المح انك فرحة ، وانك امرأة ايضاً ! وكان المنزل وانواره يلقيان اضواء وظلالاً على قسمات وجهك الناعم الحلو وعلى شعرك المسترسل اما صليبك الدقيق الفضي فكان لا يزال يشع فوق جيدك العريان الخمري . ورأيته يهتز وانا اسمعك تضحكين ، الضحكة نفسها التي طالما سمعتها منك حتى ألفتها ، اتذكرين ؟

فأحسست الزمان يتضاغط ، في سرعة عجيبة ، السنين في اشهر والأشهر في ايام والايام في لحظات ، في لحظة واحدة جبـارة هائلة ، لحظة عبوري امامك وانت تضحكين .

هنا لم تكن لا نهاية ولا ظلام ، ولا زحمة ولا غرباء . رغم هذا فقـد كنت احس امام هذه النهاية الواضحة البـاترة انني طفل ، لكن ليس كالاطفال . . . كنت احس انني طفل وحيد ، ما فكرت قبل ان تفطميه ، أنه سيعيش بلا احضان تحميه ، ولا اثداء تغذيه .

القاهرة — يوسف الشاروني

وما زالت تصلي

ونزعنا ما في صدورهم من غل . . . تجري من تحتهم الانهار . . . وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله . . ونودوا أن تلكم الجنة اورثتموها بما كنتم تعملون « قرآن كريم »

☆

قصة

بقلم امين يوسف غراب

كانت هي نفسها لا تدري لماذا استيقظت مبكرة هذا الصباح ، ولذلك عندما القت نظرة على الساعة . والفتها الخامسة صباحاً . القت على نفسها هذا السؤال : لماذا استيقظت في هذه الساعة المبكرة يا جليلة ؟ بيد انها ادركت في الحال . فحولت عينها عن الساعة واستدارت منكسة الاهداب مسترخية الكتفين . مائلة الرأس . وغيرت السؤال . والقته على نفسها ثانية وهي تنتزع اقدامها انتزاعاً من الارض . لتفتح النافذة . لماذا الكرى لم يطرق لك جفناً حتى هذه الساعة يا جليلة . ؟

وهمت ان تصل الى الجواب . ولكن شذى الحديقة الذي غمر انفاسها عندما فتحت النافذة انساها كل شيء ، الا العبير الفواح الذي هدهد انفاسها . ومسح على وجهها الشاحب فبث فيه من عطره الندي . واعاده الى شيء قليل من الرضا .

واستهواها المنظر . منظر الزهر المتفتح وهو ينظر في خفر الى طلعة الصبح . فقفلت مرتدة . ومن ثم تركت الدار كلها . وانسابت الى الحديقة . تستقبل النسيم الطلق الخفيف . وتستمع لاناشيد الطير . وهي ترجع في وكناتها لحن الشروق العذب . ليستيقظ على نغمه الحنون صبح الربيع الوسنان . . . وسرها ان ترى الطبيعة في ساعة من ساعات جلوتها . فغمرت نفسها فيها . لعل مباهجها تروح عن نفسها وتهدىء من ثائرتها وترد الى جسدها هذا المنطفىء نوره واشراقه . والى عودها هذا الجاف ، الذي لفحته نار الشوق ، واذوته حيرة العقل بين نزوات الجسد الظامىء ورغبات الضمير المستيقظ : ترد اليه ممته الفارع البارع اليانع .

وكانت تبدو في غلالتها الفضفاضة البيضاء (وروبها) الازرق اللامع ، الذي تهدل على اعطاف شفها الوله ، وبرح بها الشوق الى الري . وشعرها الفاحم الذي اقتسم معها حزنها ، فنام مكتئباً حول عنقها العاجي متمدداً على ظهرها المستقيم . ونظراتها الساجة في اعياء خلف عقلها الشارد . وشحوبها الساجي على جمالها الحزين المكتئب المستسلم لعبث الحياة السخيف . وتندرها المر .

كان يبدو عليها في ذلك كله ، مخايل الضنى المرير ، والفكر

المجهد . وكأنها لاحظت ذلك على صورتها التي كانت تتراءى لها في خاطرهـا واضحة جلية ، ترقص محزونة على تموجات النسيم المترقرق الذي انساب في رقة وراح يغازل في استحياء الورود البكر المتفتحة ، فوقفت بين الاشجار مستسلمة ترقب يد المعونة وتنتظرها حتى من هذه الزهرة المنكسة بين الزهور ، ترنو في حسرة الى لونها الحائل ، وفرعها المائل الذي عبث به مخلب طـائر شرير في عتمة الليل . . . حتى من ذلك العصفور الصغير الذي هو في شغل عنها متنقلا امام عينيها يجر الذيل من فنن الى فنن يبحث هو الآخر عن أليفه الذي يعيد اليه حياته ويرد اليه دنياه .

ولما أدامت النظر الى الزهرة ولم تشهد غير احتضارها ، وسقوطها المفاجىء بين الاوراق الميتة ، والى العصفور ولم تبصر غير الدموع من عينيه ، حولت وجهها نحو السماء . فرأت مواكب الافق تهيىء للكون احلى الابتسامات ، وهي تتجمع فرحة جذلى حول السرير الشرقي لتشهد مولد الشمس . وترك اثراً في نفسهـا هذا المنظر ، فوقفت تتطلع الى اضوائها المنبعثة ، آملة ان تجد بين هذا النور الوليد الذي يفيض على الكون ويغمره نوراً آخر ، يفيض على قلبهـا ويهدهده ويهديه الى الطريق السوي المستقيم ، ويرده الى مكانه من جوانحها ، ويريحه من عناء الوصب الذي يعانيه ، وحرقة الظمأ التي تؤذيه وانفرجت اساريرها عن ابتسامة عذبة حلوة لهذا الامل الخلاب الذي برق في خاطرها المبلبل كما تبرق السماء في خـاطر الليل المدلهم . لكنها لم تجد وأسفاه الا نسيماً عاطراً رقراقاً انبعث يسبق طلعة الشمس ، وارح يمس غلالتها في رفق ، ويطارح شعرها في شوق ، ويداعب عطفيها في مجون محبب بريء ، ومن ثم نفذ الى جسدها فمسه مساً رفيقاً رقيقاً فـأيقظ مشاعره ، والهب حواسه ، وحرك فيه شتى كوامن الرغبات الحادة الملحة .

واحست بكيانها كله يهتز ويرتعش ، وان ساقيها لا تقدران على حمل جسدها المتخدر الثقيل ، فـالقت به لاهثة على العشب المخضوضر وجلست باكية ، بعد ان حملت رأسها الصغير المحموم على ساعدها المضطرب ، واسبلت عينيها المريضتين المنهوكتي الجفن ، وراحت تتأمل .

ومثلت لها تأملاتها حقائق الاشياء ناصعة مجلوة امامها ، ورأت على كفه منها صورة زوجها الشيخ . مقبلا عليها يتوكأ على عصاه التي يحمل عليهـا صدره المكدود من علة الربو التي انهكته . وجسده الذي هدته ستة وسبعون عامـاً مرت عليه ثقيلة مملة فقوسته وأدنته من الارض حتى لكأنها كابوس ثقيل ، وعلى عنقه المترهل المائل المنحرف عن وضعه الطبيعي . ورأت ساعده الهزيل المرتعش ، وهو يهتز على العصا كأنه يئن من ثقل الحمل عليه . ورأته وهو يقبل عليها في خطوات بطيئة متخاذلة ، وكلما تقدم خطوة ارجعته علة الصدر خطوات .

وارسلت النظر اليه ، وتفرست فيه ، وادامته طويلا ، ثم ابتسمت في حسرة على نفسها مشفقة على حياتها ساخرة من هذا الذراع الذي يحاول ان يضمها احيانا ليهصر غصنها الرطيب ، ويعرك عودها المياد ويعصره عصراً مع انه لا يقوى على ضم العصـا التي ينقلها مع قدميه ، او ينقل قدميه معها .

رأت ذلك كله ، وتبينته واضحاً جلياً فصمتت قليلاً وزمت شفتيها ، ثم تمتمت في صوت حبيس مختنق . . . ظلم .

ومن الظلم يا جليلة ان يعيش ذلك الجسد الذي لم يخلق الا للري ، ولم يوجد الا للضحك ، ولم ينشد غير القوة في مثوى هذا الشيخ الفاني الذي فتتت قواه السنون ، وامتصت حيويته الايام . ففقد ميزة الزوج قبل ان يتزوجك ، او بعد ان تزوجك بأيام . حتى غدوت وقد مر على زواجك منه اربع سنوات كزهرة الصحراء مطموسة الرواء ، جافة العود ، خشنة الملمس من فرط ما يعاني فرعها من حرقة الظمأ وقيظ الهاجرة ولفحات الرمال .

من الظلم ان يذوي عودك وهو بعد في ربيع العمر ، وان تجف زهرتك والطل يتساقط على الاغصان . . . من الظلم ان تكوني زوجة بلا زوج ، وارمل ذات بعل .

من الظلم ان يتيتم جسدك ، وهو بعد لم يشب عن الطوق .

وكأن هذه الخواطر صادفت هوى في نفسها ، لأنها مـا ان استوعبت معانيها حتى تنعم جسدها وافتر ثغرهـا ، وانشق عن ابتسامة حلوة جذلى شيقة ، بعثت في كيانها كله الحياة من جديد . بيد انها تلاشت سريعاً عندما حانت منها التفاتة على الرغم منها الى اعلا العنق المائل المنحرف فرأت وجهاً صبوحاً ، ورأته كطهر السماء مشرقاً بساماً ، ورأته وقد انعكس اشراق جبينه العريض المتغضن على لحيته البيضاء المسترسلة على صدره فبلورها حتى كادت ترى فيها بسهولة نور الايمان الساطع يعكس جلال الشيخوخة الطاهرة على الوجه فتضفي عليه شعاعاً نورانياً يأخذ بالابصار .

رأت ذلك وتبينته فانتفضت في جلستها ومست جسدها هزة راعشة ، ولمعت عيناها وانفرجت شفتاها عن أنة سحيقة ثم اطبقتها

في هيبة ورهبة متمتمة . . . ظلم .

ومن الظلم يا جليلة ان تلوثي هذا الطهر وان تضعي بيدك انت تلك النقطة السوداء على هذا الجبين المشرق المتألق .

من الظلم ان تكفري بنعمة هذه اليـد الواهية المرتعشة التي انتشلتك من وهدة الفاقة . وخلصتك من مرارة العوز .

من الظلم ان تجحدي نعمة هذه اليد المرتعشة التي انقذتك من جحيم الفقر وجاءت بك الى جنة الرفاه في هذا القصر الفسيح الجنبات . فأقامتك عليه . والى هذا الثراء العريض ، وأطلقت يدك فيه .

من الظلم يا جليلة ان تتأذي من رؤية هذا الصدر المريض المكدود وقد اذاقك حلاوة الامن بعد الخوف ، ولذة البرء بعد السقم . . . ومع ذلك فهو يا جليلة . . .

هو . . . هو . هو ماذا . . . ؟

هو زوجك وقد اخترتيه راضية . حقاً . انه لم يشعرك يوماً من ايام تلك السنوات الماضيات التي انفقتيها معه انك وانت بين احضـانه في خلوة من خلوات الازواج . او جعلك تحسين لحظة واحدة من لحظـات عمرك معه انك وانت بين يديه في نشوة من نشوات الهوى . ولكنه استطاع ان يعوضك عن ذلك كله بحنان الابوة ، وعطفها الذي لا يثمن ، وحبها الذي يغمر القلب ويضيء جوانحه ، ويشعره بنشوة تختلف كثيراً عن نشوات الهوى ، وقد استقبلت كل ذلك فرحة به ، راضية عنه ، مطمئنة اليه . . فمـا بالك اذاً تكفرين بهذه النعمة ، وتجحدين هذه اليد ، وتخونين صاحبها . . ومع من ؟ . . مع اقرب الناس اليه . واوثقهم صلة به واقربهم الى فؤاده منك . . . مع الذي تربطه به رابطة الدم والحياة . . مع ابنه . . . مع محسن الذي عاد اليه من اوروبا منذ ايام وما ان رددت شفتاها هذا الاسم ، اسم محسن ، حتى لمعت عيناها وتصلبت اساريرها ، وانهلع قلبها ، واحست بتلك الابر المحماة بنار الشهوة الجامحة تعود من جديد تلهب جسدهـا وترنحه وتذهله عن كل شيء في الوجود الا هذا الاسم . . . اسم محسن .

وظلت كذلك لحظة حدجت فيها العشب المخضوضر الجالسة عليه ثم عادت من جديد ، وألقت برأسها الصغير المحموم على ساعدها الاملس المضطرب واسبلت جفنيها . ورأت امامها محسناً ، ورأته بشبابه الفتي وصحته المتأججة وحيويته الفياضة التي اخفاها خلف اكتافه العريضة وعضلاته الخشنة وساعده القوي المفتول . ورأته يبتسم لها تلك الابتسامة التي تذهلها وتعصف بحياتها حيناً ، وحيناً تحلق في دنياها جواً مشبعاً موسيقياً كله نشوة وكله لذة وكله اغراء فتسكر انوثتها الكامنة وتعطرها بعطر الشهوة القـاتلة وتجعلها تطفر حتى لتكاد تندلع وتتطاير حمماً من عينيها .

ورأت هذه الابتسامة تطاردها في كل مكان . وتجري خلفها في كل طريق . رأته يبتسم لها وهو على المائدة . . يبتسم لها وهو يطالع لها في الزنبقة الحمراء . . يبتسم لها وهو معها في طريق الفيوم قبيل الغروب . يبتسم لها وهو بجوارها في دار التمثيل يبتسم لها وهو يودعها ساعة النوم ليلة البارحة ضاغطاً على انامله التي ارتعشت في راحته ملقياً على يدها تلك القبلة الخاطفة التي كانت بمثابة حجر ضخم القي في جدول حياتها السـاكن . فأحـال سكونه الى اضطراب وهدوءه الى ثورة ، ولذيذ نومه الى يقظة الشكل في مضجع الارق . الى ذلك الليل الطويل الذي لم يغمض لها فيه جفن حتى الخامسة صباحاً . . . انها اوهام يا جليلة . . . ابتعدي عنه . لماذا لا تبتعدين عنه . . . لماذا لا تقصينه عن طريقك اقصاء .

لا استطيع . . . لا استطيع . . . انني . . . انني ماذا . . انني امرأة .

وانفجرت باكية وتركت دموعها تنساب على خدها المتأجج طليقة غزيرة بكماء . وظلت كذلك الى حـين ، ثم رجعت الى عبراتها فكفكفتها بيد مضطربة الأنامل . . والى شعرها الذي كاد يسرقه النسيم فسوت خصلاته بيديهـا وعادت الى . . . الى محسن من جديد .

كيف اقصيه بعيداً عني وانا اذوب شوقاً كلما فارقني يوماً او بعض يوم . . انني ارتعد ولهاً تحت وابل نظراته بله ابتساماته ، ان صوته المتموج الرقيق يكاد يقتلني . يكاد يعصف بجسدي ويفعل به الافاعيل . ان عباراته النارية الملتهبة تنحـدر من فمه الجميل لا لتصعد الى الافق . ولا لتتلاشى مع الاثير بل لتسري في جسدي مسرى الكهرباء . . . كيف اقصيه بعيداً عني وكل نظرة منه تجعلني اخشاه . . ارهبه . . اخافه . . انني اتوجس خيفة من مجرد التفاتات اهدابه . ان لفتة واحدة من عينيه الناريتين تجعلني اتبعه مستكينة مستسلمة لا الى ما تريد المرأة . بل الى ما يريد الرجل ذو الاكتاف العريضة والساعد المفتول والعزم القوي . . . وهل يريد الرجل غير ما تريد المرأة . . . ان المرأة الفتيـة عبدة للرجل القوي ؟

ولكن لا احد يقرك على هذا يا جليلة : لانهم لا يعرفون طبيعة المرأة . لانهم يجهلونها . . حتى الرجل القوي نفسه هو اجهل الناس بطبيعة المرأة . والا لمَ أذل محسن رجولته والقى بها صاغرة عند قدمي .

وجففت دموعها وقامت من مكانها متخاذلة تدفع عنها ألماً ثقيلاً لا يدفع . وراحت تنقل الخطى نقلاً هيناً بين الورود اليانعة وزهر الحديقة الضاحك المستبشر ، ورأت على قرب منها بعض الورود المتفتحة الهيانة على اغصانها ، فوقفت حيالها ترقبها وتتأملها ، واستهوتها واحدة تضرب الى الحمرة الشبيهة بخدودها . ورأتها ريانة العود ندية المحيا فتقدمت منها وتأملتها ، وكأنها وجدت شبه صلة قوية تربط بين رقة الوردة وعواطف المرأة . لذلك دققت فيها واخذت تتأملها في حنان وتحدثها في صمت . ثم مدت اناملها الرقيقة ومسحت عليها ومن ثم قطفتها ودخلت بها الجوسق ، تضمها وتناجيها . ولما اطمأنت الى نفسها وانفرادها في الجوسق ، همت ان تدنيها من ثغرها وتطبع عليها قبلة تودعها كل نداءات البدن الظامىء . ولكنها رأت وهي تدنيها من شفتيها لتقبلها ، رأت وجه محسن المشرق البسام مختبئاً خلف افوافها يفتر لها عن ثغر كاللؤلؤ ويهش لها ويبتسم لمرآها ويدني ثغره من ثغرها ليفرغ فيه ذلك السلسبيل العذب الذي تتحرق اليه . وبدل ان تسرها هذه المفاجأة . نفرت منها ومن تخيلاتها هذه السمجة التي تنم عن كثير من الجنون .

وغاظها ان تذهب بها اعصابها الى هذا الحد وتسخر منها حتى هذه الوردة الصغيرة رغم ضعفها ، فابعدتها عن ثغرها ، واشاحت بوجهها عنها وهمت ان تلقي بها الى الارض في غضب وتميتها بقدميها في قسوة . ولكنها أحست فجأة براحتين لرجل قد تسربتا الى وجهها من الخلف وحجبتا عينيها فجفلت وقبضت بيديها على يديه في ذعر والتفتت بصدرها اليه لترى من يكون هذا المجترىء على خدرها . واذا بها وجهاً لوجه امام محسن تنظر اليه ، ويداها مشتبكتان بيديه وصدرها الخافق يشكو لصدره حر لهفته ، وثغرها الظامىء يشكو لثغره حرقة النار .

وغمرت انفاسه الحارة محياها وانحدر صوته العذب الى قلبها فوتحه . والتف ساعده القوي حول خصرها النحيل ، ليهدىء من اعصابها ويستنهض من همتها .

ورأت بعيني رأسها روعة اكتافه ووثاقة عضلاته ولونه الاسمر الجميل ، فشعرت بالنشوة تدب فيها والدم يغلي في عروقها وحيوية شبابها تتجه بكليتها اليه وتناديه وتطلبه وتلح في ذلك الحاحاً ، فمدت يدها في رفق ومست جبينه مساً رفيقاً رقيقاً .

وعصفت الريح بالسفين فتوردت وجنتاها وبرقت عيناها ، وتصلبت اسارير وجهها ، وثقلت ذراعاها واحست بتخدرهما وهي ترفعهما الى صدره لتضمه الى صدرها وتذيب جسدها فيه ، بيد انها ارادت ان تسر اليه شيئاً بعينيها فرفعتهما الى وجهه : وصوبت شعاعهما الناري الى عينيه ، ولكنها لم تر وجهاً واحداً بل رأت وجهين . رأت وجه زوجها الشيخ قائماً بجانب وجه ابنه ، ورأته بجبينه العريض المشرق ، ولحيته البيضاء المسترسلة التي لاحت لها تتراقص متبلورة امام عينيها على رفعة ناصعة البياض كأنها صفحة بيضاء طاهرة لم تمس . ورأت اسلاكاً نورانية تتجمع وتتقابل على صفحة الوجه الطاهر المشرق ، فترسم عليه بعض الخطوط والتعاريج ثم رأت تلك الخطوط وهذه التعاريج تتركز وتلتقي في مكان واحد من الوجه ، هو الجبين المنبسط الذي راح ينبعث منه اشعاع لا تقوى العين على التطلع اليه ومن ثم ومض فجأة وغمر صفحة الوجه كله ورسم عليه باحرف من نور (الله والزوج) .

وما ان رأت هذه الصورة حتى انتفضت في وقفتها ، وراحت تصطك وجلة خائفة ترتعد . وفجأة احست بشيء كأنه النار يلهب جسدها فدفعت الشاب عنها في عنف دفعة قوية وصرخت في وجهه صرخة مجنونة ارعبته ، وانطلقت تعدو كأن شبحاً مخيفاً يطاردها .

وقفزت درجات سلم القصر في سرعة خاطفة وانحدرت مباشرة الى مخدع الزوج ودفعت بابه دون تريث ، فألفته قائماً بين يدي الله يصلي ، فوقفت خلفه مضطربة مكفكفة ترتعش . وانتظرت حتى خلص من صلاته فارتمت بين احضانه ، وطوقت عنقه المائل المنحرف بذراعيها ودفنت وجهها الصغير المحموم في لحيته البيضاء المسترسلة ، وتمتمت باكية وهي خائفة وجلة تلوذ باحضانه :

ابي علمني الصلاة . . . علمني الصلاة . . .

القاهرة — امين يوسف غراب

التأليف الكبير *

ترجمه عن الايطالية : مصطفى آل عيال

ليسانسيه في الآداب

☆

الفصل الرابع — الوجدان والوساطة

Coscienza e Medianità

لديكم من الاسباب والوسائل لتتصلوا باناس اكثر اهمية من اولئك الذين تسمونهم سكان المريخ ، ولكنها اسباب ووسائل روحية وليست هي آلات ميكانيكية ، اسباب ووسائل روحية لان علمكم (الذي يؤثر في الاشياء من الخارج الى الداخل) وتطوركم (المنتشر من الداخل نحو الخارج) سيهزانها جميعاً الى النور .

نستطيع تسمية احد وجدانيكم الاعمق من الوجدان الطبيعي العادي ، وجداناً متوارياً واليه ترد اسبـاب اكثر الظواهر التي لا تعرفون لها تأويلاً . ان اقيسة المباحث الوضعية ، وقد جعلتكم تمعنون النظر في قوانين الطبيعة ، دفعتكم الى اكتشـاف طريقة تحويل موجات الكهرباء معطية لكم اول حد للمقابلة المحسوسة لتلك الوسائل والاسباب ، لقد اقتربتم شيئاً ما وتستطيعون اليوم ، حتى علمياً ، ان تفهموا احسن من ذي قبل .

تأثروني مبتدئين من الخـارج حيث انتم واحساساتكم وروحكم ، نحو الداخل حيث انا ككيان وفكر . في عـالم الهيولية عندنا اولاً ، الظواهر ، ثم قوة ادراككم للمحسوسات واخيراً — من خلال جهازكم العصبي المنعكس في جهازكم النخاعي — تأليفكم الروحي : الوجدان . الى هنـا تصلون كنتيجة بحث علمي واختبار يومي .

مذهبكم المادي لم يتبه وقد رأى في هذا الوجدان روحاً هي ابنة الحياة الطبيعية وقد قدر الموت لها معها . وليس ذاك الوجدان غير نفس سطحية نتيجة البيئة التي تقودكم الى تنازع البقاء . وهذه الوسيلة ، كما اسلفت القول لكم ، لن تستطيع اجتياز ما وراء هذه المهمة ومتى دفعت في خضم المعرفة الكبرى تاهت : هي قوة الادراك والعقل الراشد وذكاء الانسان الطبيعي ، هذا الذكاء الذي لا يذهب الى ما وراء حاجيات الحياة الدنيوية .

اذا اكثرنا من التعمق نجـد الوجدان المتواري بالنسبة الى الوجدان الخارجي واضحاً كموجات الكهرباء بالنسبة الى موجات الصوت . وبهذا الوجدان الاعمـق يتعلق ذاك الحدس الذي هو الوسيلة لادراك الاشياء المحسوسة والتي سبق وقلت لكم ان من الضرورة بلوغها ليتسنى التقدم لمعرفتكم . وجدانكم المتواري هو روحكم الحقيقية الابدية ، تلك الروح التي كانت موجودة قبل مولدكم وستحيا بعد موت الجسد ومتى تقدم العلم وبلغ ذاك الوجدان فقـد لامس خلود الروح . ولكنكم اليوم لا تحسون بذلك العمق ، انتم بشعوريين على قدر تلك المعادلة ، ولأنكم لا تحملون في انفسكم اي احساس ، انتم تنكرون . ان علمكم يجري عدواً وراء احساساتكم بدون ان يخامره امكان التفوق عليها وهكذا يبقى حبيساً كأنه في سجن . ذاك الجزء من ذاتكم يظل منغمساً في الظلمات ، او على الاقل هذا مـا يحدث لاكثر الناس وعندئذ ينكرون ، هذه الكثرة الموسومة باسم الشرائع والقوانين تجعلهم مكدسين في خضم الطبيعة العـادية [1] بشكل مؤلم إما ذاك الانسان الذي هو دون الطبيعة العـادية [2] او ذاك الذي هو فوق الطبيعة العـادية [3] هو عنصر الغد . وافراد قلائل فقط يشذون وهم سابقون للتطور ، لانهم على بينة من وجدانهم الداخلي يسمعون ويفوهون باشياء عجيبة ، ولكنكم لا تفقهون لهم قولاً الا بعد وقت طويل ، بعد ان تنكلوا بهم . ومع ذلك فهذه هي الحالة الطبيعية العادية لانسان الغد الكامل .

لقد أشرت الى هذا الوجدان الداخلي لانه هو اساس الشكل الاعلى للوساطة ، الوساطة الملهمة العاملة المدركة ، والتي هي بالفعل ظهور الشخصية الانسانية التي يتسنى لها ان تبلغ هذه الحـالات العميقة الوجدانية والتي يصح تسميتها بالحدس .

وجدانكم الانساني هو العضو الخارجي الذي به ، تلامس نفسكم الحقيقة الابدية العميقة ، الحقيقة الخارجية لدنيا المادة . وبواسطته تختبر حوادث الحياة كلها وتتخذ من هذه الاختبارات كنزاً لها ، وتحول الى ذاتها العصير المصفى وتتبناه وتجعل لنفسها

* La Grande Sintesi - Pietro Ubaldi

(1) normalità (2) subnormale (3) supernormale

صفات ومواقف خاصة ستصبح فيما بعد الغرائز والافكار المنبثقة من المستقبل . وهكذا فان خواص الحياة الخالصة من الشوائب تنحدر الى الاعماق بين حنايا الكائن الحي وتتركز في الابدية بصفة خالدة ولا شيء ألبتة من كل ما تحيون به وتتنازعون عليه وتتألمون له يصير في مادته الى العدم .

انكم تدركون بان كل عمل تأتونه يميل ، مع التكرار ، الى الثبوت فيكم في تلك الحركات الآلية التي هي عادات ، اعني بها البزة القشيبة او الثوب الفضفاض نضعه فوق الشخصية .

ان انحدار اختبارات الحياة هذه تكوّن مثل الطبقات حول محور « انا » الاساسي الذي سرعان ما سيتضخم كعملاق ، بصورة انتشار دائم ، وهكذا فالحقيقة الخارجية (وهي نسبية وعديمة التركيز بقدر ما هي خارجية) ستحيا وتتغلب على ذلك الفناء وهكذا لا شيء يموت في زوبعة الاشياء الهائلة ولكل عمل من حياتكم قيمة ازلية .

الفصل الخامس ـ ضرورة الكشف*

حدثتكم عن عقل الانسان الذي اقتم به صرح علمكم مثبتين نسبية اداة السهو وعدم اهليتها ابداً كي يكون وسيلة للاستيلاء على المعرفة المطلقة .

واني الآن اقترب بكم اكثر فاكثر بتؤدة نحو محور المسألة . ان البحث الذي سأطرحه بين ايديكم يمثل مبدأ جديداً بالنسبة الى علمكم وفلسفتكم ، جديداً لفكركم . فاللحظة النفسانية التي تجتازها الانسانية اليوم تتطلب عونها في هذا الكشف . لا تتعجبوا من هذه الكلمة : ليس الوحي هو وحده الذي انبثقت منه الاديان ، فانه ايضاً كل تلامس للروح الانسانية بالفكرة العميقة التي هي في المخلوق ، يكشف للانسان عن سر من اسرار الكائن الحي .

معنوية الانسانية ، ترونها ، كما هي عليه اليوم ، ليس لها غد انها تفتش عن هذا الغد وهي قلقة ، ولكنها عاجزة عن العثور عليه وحده . انها تنتظر شيئاً ما ، مهوشاً ، بدون ان تعلم ماذا عساه ان ينتج ويتولد ، من اين ؟ . و كيف؟ . ولكنها تنتظر ، لحاجة باطنية ، لغريزة ملحة لا تقهر ، هي شرعة الحياة . انها تنتظر مرهفة السمع آخذة على عاتقها بان تغربل تلك الاصوات كلها ، الجيد منها و الزائف ، لتصطفي ذاك الصوت الملائم لغريزتها التي لا تخطىء ، ذاك الصوت الذي — وقد تنزل من اعماق اللامتناهي — سيعرف وحده كيف يجعلها ترتجف . وفوق الخلق كلهم نرى رجال الفكر ينتظرون بصفتهم قادة للحركة الفكرية . ورجال الاعمال ينتظرون ايضاً اولئك الذين يتزعمون حركة العالم السياسية و الاقتصادية . العقل الانساني يبحث عن فكرة تهزه هزاً عن فكرة عميقة يشعر بها بكل قواه كي توجهه نحو المدنية العتيدة للألف الثالثة .

المبادىء التي بين ايدينا ، بعضها عديم الكفاية ، وبعضها علاه الصدأ . فالعلم وقد اعماه التيه والخيلاء ، مذ انبثقت انواره ، برهن عن ذاته بانه عاجز امام اسئلة « لماذا » الاخيرة ، وقد انحط بالانسانية واصابها باضرار فادحة وتقهقر بها نحو تلك المادة التي قتلها بحثاً ودرساً وهو يدعي التعميم من ادنى المبادىء القليلة . الفلسفات هي منتوجات فردية ، هي ارتفاع يشابه تلك المقدمة التي لا جدال فيها والتي هي « انا » ذاتها . ومع انها هي ايضاً احداس ولكنها احداس ذات محاباة ، واوهام شخصية والتي لا تهم الا الزمر المماثلة . فالعقل الرشيد هو اداة مباشرة لاهداف الحياة المادية ولا يقدر ان يفوقها ويجتازها الى غيرها . اذاً هو لا يكفي ، والروحيات المتعددة خطأها الذي لا يغتفر في أنها تحتكر امتلاك الحقيقة باسم الآله الواحد . هذه الروحيات كلها متوجهة باحثة لا عن صلة الوصل او الجسر الذي يربط بينها ، بل جل اهتمامها في حفر الهاوية وتوسيعها لتقوم سداً منيعاً او حاجزاً متيناً بينها . كل منها قلق تواق لاكتساح العالم باجمعه بدلاً من ان توحد جهودها جميعاً وتندفع معاً حسب قوة وعمق الوحي الذي كان من نصيبها ، وبذلك اضفت كلها ، واأسفاه ، على الشعلة الآلهية الاصلية صفة الانسانية .

امام التأثرات الكبرى التي حركت الشعوب فيما مضى نرى اليوم النفس غافية في احضان السوفسطائية وقد سقطت في الفضاء الى درجة انها لم تعد لها قوة كافية لتسير بها او ظل من الفائدة . لقد اصبحت مثل « لا شيء » مسجى بقناع براق خداع . لقد انحدرت الى الدرك الاسفل انها في مرحلة النفاد الاخيرة : اللامبالاة ، هذه هي اللوحة التمثيلية لعالمكم الروحي ، ان ما يقودكم الى حقيقة الحياة هو ، ويا للأسف ، شيء آخر : الانانية ، هي شهوتكم الدنيئة التي تؤمنون بها بكل قواكم . ولن تستطيعوا ان تسموا هذا توجيهاً او مبدأ له القدرة على ارشادكم او السير بكم نحو اهداف سامية . واذا اصررتم على تسمية هذا بالمبدأ فهو اذاً مبدأ التفكك والانهيار ونحو هذا المبدأ الاخير نرى العالم يسرع الخطى .

لقد ازفت الساعة التي يجب ان تُعلن فيها كلمة الحقيقة السافرة .

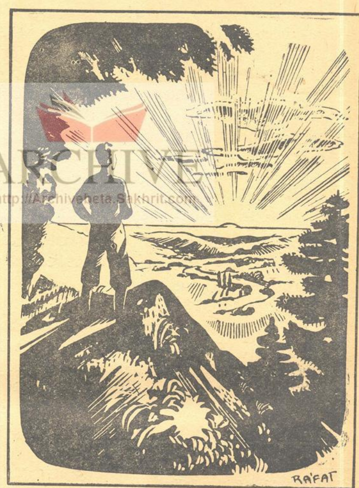
مصطفى آل عبال

* Necessità di una Rivelazione

الفنان والطبيعة

بقلم الآنسة ثريا ملحس

☆



الساعة الثالثة صباحاً . والشمس لم تستيقظ بعد . وكان الرسام جالساً تحت شجرة ، رسام قصير القامة بدين ، نشيط ، وله وجه قوي ، متجعد ، وفي عينيه ومضة فكاهية ! وشفته السفلى ناتئة ، وأما معصمه وعضلاته فكأنها مصنوعة من فولاذ ، واما قلبه فقلب طفل !

ينظر الرسام الى ستار الفجر الرمادي وهو يرفع عن عين الله ، ثم يغني ، يغني بسذاجة ، يغني لأنه مسرور ، يغني لفكرة تدور في خلده ، الا وهي انه حي ! يرى بعينيه جمال الفنان الأكبر .. يغني كالعصافير ليستقبل نهاراً جديداً ، يغني وينتظر .. وفي خلال الضباب الرمادي تذوب الخطوط الخارجية للمخلوقات ، وتكاد لا ترى بالعين ؛ وفي الهواء ينتشر طيب خافت ، ويمر النسيم على الاعشاب فترتجف ، واخيراً ، تنفرد أشعة من الشمس ، فتستيقظ الزهور مثقلة بقطرات الندى المترجرجة ، وتنطلق العصافير ترتل ترتيلة الصباح ، وهي بعيدة عن العيان ، ساكنة في كاتدرائيتها الملتفة بالاشجار .

ينقشع الضباب كأنه ستار ، رفع معلناً عن مشهد جديد : نهر فضي ، وشجر ، وأكواخ ، ووراء ذيالك المشهد أفق لون بلون خفيف هادىء ، واما الرسام فلم يزل تحت الشجرة يتملى من تلك المشاهد الرائعة .

استيقظت الشمس ، والتهبت السماوات بنورها الوهاج ، واما الارض فلم يزل الضوء على اديمها ضئيلاً لطيفاً .

هناك ، في آخر الحقل ظهر فلاح يسوق كارته وثيرانه ، ومن بعيد انبعثت صليل اجراس الغنم ، وعلى حصان أرقط رحالة

يصعد التلة ثم يختفي في الشعـاب ، وعلى ضفاف النهر اشجار « التبولا » البيضـاء الرقيقة تمشي ، كأن الهواء يطاردها ! بين اشجار « التبولا » البيضاء ، والاعشـاب الخضراء ، والرياح : الازرق النقي ، اللطيف ، المنعش ، وقف الفنـان يغني ويرسم مـا يرى ! ترك الفلاح عمله ليراقب ريشة الفنان ، فاندهش وقال : « شيء جميل جداً ! هذا جمال يا سيدي ، انك تجعل رسمك ينطق » !.

جاء وقت الظهر ، واضرمت الشمس الدنيا وما فيها ، فثقل الهواء وصار خامداً وسناناً ، وأطرقت الزهور رؤوسها ، وكفت العصافير عن الترتيل . . وساد الكون سكون . ومن بين هذا السكون علا صوت واحد . . صوت مطرقة الحداد في القرية : « دنج ، دنج ، دنج » ! مـا اشد تناسق ضربات المطرقة على السندان ! ثم سكتت عن القرع لأن وقت الراحة قد حـان ، وذهب الرسام الى الحقل ليتناول غداءه ، وكان نصيبه قطعة كثيفة من الخبز ، والزبدة ، والجبن ، والبيض ، ولحم خنزير . . . آه كم هو سعيد ، مقتنع بعزلته ، معه الاكبر : الطبيعة ، وأصدقاؤه المخلصون : الطيور والأنهار والسماء ، وما فيها ! وبعد ان تناول غداءه الخفيف ، استسلم الى القيلولة .

حلم بمناظر مختلفة . . . فيما بعد ، ستسجل ريشته احلامه !

وصات الشمس الافق فاهتز الهواء ، كأن صوتاً انطلق يهشم ذراته ، الى العمل ثانية ! ايها الفنان ، المنظر العام لم يتغير ، واما حالته فقد تغيرت من حيث الظل والنور . . ما هذا التغيير في الملامح ، في الخطوط ، في الاظلال ، في التناسب ، وفي الافكار ! — كل هذا لان في ريشة ذلك الفنان الساحر حياة ، يسكبهـا في لوحاته لتنطق وتفكر .

غربت الشمس وغـامت في وسط رشة ألوان : صفراء ، برتقالية ، قرمزية ، قرنفلية وبنفسجية ، يا له من مشهد صلد مبتذل ، لا يروق مزاج صاحبنا الفنان ! انه يفضل الطبيعة في أهدأ حالاتها ؛ وهكذا قفل الفنان الى شجر الحور ينتظر . . . تعبت الزهور ، ولكنها لا تشكو النصب ، كما يفعل الناس الذين يملأون الدنيا ضجيجاً ونواحاً اذا تألموا او تعبوا ، هي عطشى ولكنها تنتظر ، هي تؤمن بأن الليل لا ينسى ان يملأ كأسها ! هي صبورة . . واني اشكر الله على ذلك . . .

التوت آخر اشعة من الشمس الى ما وراء الافق ، وزركش السحابة عرق ذهبي بنفسجي ، آه — هذا اشبه مـا أريد ، نور الغسق والسحر ، نور الهدوء والرقة والسلام . ومن انعكاس الشمس الأخير ، أسدات السماء بخاراً اصفر خافت اللون وفي الليل انغمس وهج الشمس ، واصبحت السماء نسيجاً ناعماً من الاخضر ، والفيروزجي والرمادي والبني ، وعلى صدر النهر عكست السماء الحانها الناعمة . وكان كل شيء مبهماً مضطرباً ، تلك هي الدقيقة المختنقة عندمـا يذوب المنظور في غير المنظور . . امـا الطبيعة فكـانت وسنى ، والطيور نامت بعد ان صلّت صلاة الليل . ثم انسلت الحوريات من مكامنهن يرقصن في افياء الشجر . صه ! كفَّ عن الغناء ايها الفنـان ، اياك وان تلقي الرعب في قلوبهن الصغيره ! اذا لم تكف فانهن يهرولن الى اوكارهن .

غروب ، هدوء ، ليل ، هبطت من السماء نجمة ، فغاصت في البركة وعكست على المياه نوراً ، فسمع حفيف البسمات الفضية وهي تعلو على سطح المياه . . هوت نجمة اخرى ، ثم ثلاث نجوم ، وست . . وعشرون . . وألف ! هذه النجوم تغوص في سواء ليل دامس ، وسرب من النحل الذهبي يؤم البركة . . . ليل ، اوهام ، احلام ، تصاميم جديدة لليوم الطالع ، منـاظر جديدة ، ورؤى جديدة ، واسرار جديدة ، ستلتقطها وتفسرها ريشة ذلك الفنان على لوحاته ، ولكن قد تم عمل اليوم فـالى الغد — « قد اطفأ أبانا السماوي قنديله ، ويجب عليَّ ان اكف عن الرسم » .

ومما ذكرناه هو الانموذج عمل « كورو » (Corot) اليومي كورو الشاعر الرسام الذي نجح نجـاحاً باهراً في تمثيل الطبيعة ودقائقها وسيكولوجيتها ،

كورو الشاعر الرسام الذي نظر بعينين ثاقبتين الى ذات كل شجرة ، كل زهرة ، وكل نصل من الحشيش ،

كورو الشاعر الرسام الذي امتاز بشخصية فريدة وروح حي ، كورو الذي أحب الطبيعة وآمن بها وجعلهـا تنطق وتفكر ، واجمل ثناء تلقاه كورو لفنه تلك الجملة البسيطة التي قالها الفلاح الساذج : « سيدي انت تجعل رسمك ينطق » ! ولما سئل كورو الشاعر الرسام لماذا لا تجعل خليلة لرسمك ، قال : امـا خليلتي الوحيدة فهي الطبيعة ، اليها ، اليها وحدهـا سأظل مخلصاً محباً طول حياتي » .

ثريا ملحس   عمان

المرجع : Living Biographies of Great Painters, By Hand D. L. Thomas. New York

ألهميني

لعبد اللطيف شرارة

أَلهميني بدائع الفن والشعر فروحي تلقاكِ في أشعاري

آيةٌ أنتِ من نعيم تجلت في فضاء منوّرٍ معطار

يستمد الربيع منها أغانيه فيهتز وارفاً في القفار

وتجول الأبصارُ في افقها العذب فيحلو الوجود في الابصار

وتذوب القلوب فيها ، فتنهال بياناً كالوابل المدرار

كيف بالشاعر الرقيق ، ألا يدفق بحراً يفيض فوق البحار ؟

ألهميني، أُحسُّ بالكون يشكو ظمأ الروح للمعاني الكبار

عُطلت هذه الحياة من الحبّ وأمست عوداً بلا أوتار

فهي ملهى عناكبٍ تنسج الإفك عليها في حفنة من غبار

لا حنانٌ ، لا رقة ، لا شعور لا سمو في عالم الأفكار

ظلم تكسف الشموس وتلقي غيهب الليل فوق سحر النهار

صدئت مهجة الوجود وذابت في سعير الآثام والاوزار

وانطوت صفحة النعيم فما يسمع غير الأنين في الاقطار

ألهميني الهوى كروحك طهراً وصفاء أهز قلب الدراري

وأرد الحياة للحب سكرى تترامى عليه في تيار

وأعد للنفوس ما ضل عنها من معاني الوفاء والايثار

أنا سرٌ محجبٌ فأضيئي ظلمة العيش تنكشف أسراري

انا فجر لم ينجل الليل عني ليرى الناس فتنتي وازدهاري

انا قلب يعيش في سدة النور ، ويغنى في مهجة الاحرار

انا كنز من عاطفات وحب لم يبن للحياة بعدُ نضاري

انا روح تهواك حتى ترى الموت حياة في حومة الاقدار

اين أرمي بمهجتي وشبابي قبل ان تقطف المنون ثماري ؟

ولمن أشتكي ظلامة دنياي ، ولا من يُقيلُ بعدُ عثاري ؟

ألهميني العزاء فالارض ضاقت عن حنيني وروعت اوطاري

عبثاً أنشد السلو وأرجو هدأة يطمئن فيها قراري

أتملى من الوجود فلا ألمح إلا خيال حسنك ساري :

إن اتيت الرياض كنت ضياء طافحاً في بشاشة الازهار

او سمعت الهزار كنت نشيداً يتجلى به نبوغ الهزار

او سموت الذرى تمثلت معنى عبقرياً يجول في أفكاري

صرتِ ملء السهول، ملء الروابي صرتِ ملء الربوع، ملء الديار

أجد الكائنات حولك تبدو في إطار وأنتِ قلب الاطار

سينوء الزمان يوماً بروحي ويواري هواي فيما يواري

ستكل الضلوع يوماً وتغدو جامدات كهذه الاحجار

سيذوب الفؤاد في حمأة الوجد ، وتفضي حباته لاندثار

ألهميني ، عساي أحفظ حبي بعد موتي بهذه الاشعار



بقلم فؤاد ايوب

وعدتك ايها القارىء ، في عدد سابق من « الاديب » ان نقوم معاً بنزهة الى القمر ، ويجدر بنا ان نلم الماماً سريعاً ببعض التفاصيل عن القمر قبل قيامنا اليه .

سمعت بان القمر هـــو ابن الارض . ويفسرون ذلك بكونه قطعة انفصلت عنها في الازمان الغابرة فتعال اذن ، قبل ان نقبل ما يقول الناس ، نناقش اقوالهم ونستخرج منها الخبر اليقين .

انا لا ادري ما الذي جعل ذلك الفلكي الاميركي يعتقد مثل هذا الاعتقاد . واسمعه كيف يقول : هذه الكرة الضخمة التي تتدحرج في السماء وتبدد من ظلمة ليلنا ، ما هي في الحقيقة ان لم تكن تلك القطعة من ارضنا التي كانت تحتل يوماً ما فراغ المحيط الهادى.به ولا اعرف كيف انفصلت هذه القطعة عن الارض بعد ان تشكلت هذه تماماً ثم انطلقت بسرعة هائلة نحو السماء وقد كان يمكن ان تتابع طريقها عبر الفضاء ..

واذا كنت تعتقد بان الفلك لم يعد قصصاً خرافية تروى للاطفال ، ولا احاديث واستنتاجات وضعت لتخلب لب البسطاء من الناس ، بل اصبح اليوم علماً قائماً بذاته لا غنى لبقية العلوم عنه ، فلا بد ان تستبعد معي مثل هذا الرأي غير المعقول . فكيف تشكل القمر اذن ؟

لنعد الى الوراء بضع آلاف من القرون يوم كانت الارض وعاء ضخماً من الغازات والابخرة المعادن الملتهبة تلمع في الفضـــاء كشمس صغيرة . لا اثر لاي قمر حول هذه الشمس المتواضعة ، وانما حلقة ضخمة من مادة لاحدود معينة لها ، تدور حولها وتشبه بعض الشبه ما نشاهده في بعض السدم . وتمر القرون ويتبدل المنظر شيئاً فشيئاً وتتكاثف مواد هذه الحلقة الابتدائية في كتلة واحدة كروية . ان الحلقة قد انقلبت جسماً صغيراً نيراً يدور حـــول الارض .

وقديماً كانت الارض والقمر يبرقان والكل منهما نور خاص فيشكلان في السماء نجماً مضاعفاً متواضعاً ، تجمع بين مركبتيه قوانين التجاذب .

وقديماً كان القمر الى جانب حركته الانتقالية حول الارض ، يدور حول نفسه في مدة بضع ساعـــات . الا ان جسمين سائلين قريبين من بعضهما يؤثران على بعضهما بالجذب تأثيراً كبيراً ، ممـــا ابطأ حركة المجموع . ولما كان حجم الارض كبيراً بالنسبة لحجم القمر ، فقد كانت تؤثر عليه ، في كل دورة ، تأثير اللجام ، ممـــا نشأ عنه اخيراً تساوٍ زمني بين حركتي القمر : الانتقالية حول الارض ، والدورانية حول نفسه . وتسير الامور اليوم ، وكأن القمر مثبت الى الارض بذراع ضخم فلا نرى منه سوى وجه واحد . اما الوجه الآخر فقد قدر علينا ان لا نراه ابداً من ارضنا على الاقل .

وقد تسألني : ألم تنفصل هذه الحلقة الابتدائية عن الارض من جراء دورانها السريع حول محورها ؟ ويكون القمر بالتالي ابناً للارض . نعم ، لكن هذا يتطلب ان يكون المستوى لكل من دوران الارض والقمر منطبقاً على صنوه او متوازياً معه عـــلى الاقل (وهذا مستبعد) . ونحن نلاحظ انهما يعملان زاوية قدرهـــا ست درجات تقريباً . وهذا يبعد مثل ذلك الرأي اللهم الا ان يكون هناك نجم قد اقترب قديماً من القمر بسرعة خاطفة فأثر عليه جذباً وغير مستوى دورانه ، وهذا رأي غير معقول ، او لا دليل يؤيده .

فلم لا نقبل اذن فرض ان هذه الحلقة قد انفصلت عن الشمس حين انفصال الارض عنها وانطلقت بعيداً معهـــا في الفضاء ؟ نعم ليس لدينا ما يؤيد هذا الرأي الاخير كل التأييد الا انه خير تعليل لنا الآن .

فالقمر ليس ابن الارض ، بل ان هو الا رفيق لها او اذا شئت فقل حارس لها ، بعثت به معها الشمس الأم كي يرافقها في رحلتها الطويلة عبر الفضـــاء اللامتنـــاهي ويعكس لها من نورها كأنها ابت على نفسها ان تحرم ابنتها من هذا النور ، ولو بضع ساعات في الليل .

واذا سألتني السبب في ان القمر لا يبدو لنا بشكل قرص مستدير ، بل نراه يظهر اول الشهر القمري بشكل هلال رفيع ، فاني اقول لك ما قاله احد الفلكيين القدمـــاء من ان القمر مقسوم الى قسمين متساويين احدهما مشتعل والآخر قد انطفأ وانه يبدو لنا على اشكال شتى حسب ما نراه من القسم المشتعل حين دوران القمر حول نفسه . لن اقول لك هذا ولكني ارسلك الى ابسط كتاب في مبادىء الفلك كي يعطيك تعليل ذلك .

واما السبب في ان القمر يبدو نحو الافق اكبر منه في السمت ، مع انه يكون في السمت اقرب الينا بمقدار نصف قطر

الارض (٦٠٠٠ كيلومتر تقريبا) عنه حين يكون نحو الافق ، وبالتالي كان يجب ان يبدو اكبر قليـلا ، وان كان الفرق بسيطـاً حتى ان العين المجردة لا تستطيع تمييزه ، فالحق اقول اني حائر بين تعليلات الفلكيين الكثيرة المتضاربة لهذه الظاهرة فبعضهم يقول انه ناشىء عن ضلال ضوئي، وبعضهم الآخر يقول انه ناشىء عن وجود اشياء كالاشجار وغيرها ، تقابل القمر بها حين يكون نحو الافق وعدم وجود مثل هذه الاشيـاء حين يكون في السمت . ولكني لن اعدد لك هذه التعليـلات ويكفي ان اذكر الرأي التالي الذي قد يكون اقرب الى الصحة من غيره والذي يقول : ان هذه الظاهرة تنشأ عن كون قبة السماء ، هذه القبة المثالية التي تعلق عليها جميع النجوم كأنهـا متساوية البعد رضينا ذلك ام ابينا ، غير كروية تماماً ، بل هي منخفضة الوسط . ولما كانت الابعاد الظاهرة لجسم ما تكبر كلما ألقينا خياله على غور ابعد، كان تعليل هذه الظاهرة معقولاً . برهان ذلك انك لو نظرت الى الشمس قبل غروبها حين يكون نورهـا خفيفاً بحيث تتحمله العين ، ثم نظرت الى نقطة اخرى من الافق لرأيت ، بتـأثير الانطباع الشبكي، قرصاً مستديراً اسود له ابعاد قرص الشمس تمـاماً . ولو انك رفعت عينيك قليلاً نحو قبة السماء لرأيت هذا القرص الاسود تصغر ابعاده كلمـا اقترب من السمت حيث يبلغ حده الادنى اما انخفاض وسط قبة السماء فناشىء عن كون الارض تبدو لنا ، في بقعة محدودة، مسطحة وليست كروية .

هذه الكرة الصغيرة نسبيـاً والتي ندعوها القمر تدور حول الارض على بعد وسطي يبلغ (٣٨٤٤٤٦ كيلومتراً) ولو اننا وضعنا ثلاثين ارضاً قطباً الى قطب لملأت هذه المسـافة الضئيلة بين الارض والقمر . واذا كانت هذه الكرة تخضع لقوانين التجاذب فحركها ليس دائرة بل يجب ان يكون اقرب الى القطع الناقص منه الى الدائرة . واذا لاحظنا انهـا الى جانب دورانها حول الارض، ترافق الارض في دورانها حول الشمس وفي انتقالها معها عبر الفضاء، استنتجنا ان محركهـا ليس دائرة ولا قطعاً ناقصاً بل هو خط منحن رسمه اسهل علينا من تحديده .

وقطر القمر يبلغ (٣٤٨٠) كيلومتراً فقط وحجمه جزء من تسع واربعين جزءاً من حجم الارض، اما هذه البقع الدكناء على سطحه التي تظهر لنا بشكل وجه انسان له عينان وانف وفم وقد يراها البعض بشكل رجل قد انحنى ظهره كثيراً تحت عبء حمل ثقيل ، فقد كان الاعتقاد السائد قديماً انها بحار ومحيطات ، اما اليوم فيكفي ان ننظر اليها بمنظار صغير كي ندرك انها ليست سوى ظل الجبال القمرية العالية .

والآن ، وفي انتظـار اليوم الذي يتوصل فيه المهندسون الى بناء صاروخ ينطلق بسرعة ابتدائية قدرهـا (١٤) كيلومترا في الثانية ، ويجهزونه بآلات الاوكسجين والالجم الضرورية لتخفيف سرعته حين اقترابه من القمر ، الى غير ذلك مما يجب توفره لحفظ هذا الصاروخ وركابه ، في انتظار ذلك اليوم تعال بنا نستقل مركبتنا السحرية الى القمر .

حقاً ، اي حلم ! ان نترك الارض وان ننطلق في الفضاء بعيداً عنهـا . ثم نحط رحالنا على القمر ونجول منقبين على سطحه، نزور جباله ووديانه وسهوله ، ثم نعود الى الارض نحدث اهلها بمـا شاهدناه . حلم غريب لذيذ ، وعساه ان يتحقق .

فلننطلق اذن . التنفس صعب جداً على بعد عشرة كيلومترات . وعلى بعد عشرين كيلومتراً يصبح الهواء مخلخلا جداً حتى لا يستطيع اي حيوان ، يستحق هذا الاسم ، ان يعيش فيه لحظة قصيرة . الا ان بعض جراثيم ما تزال تقاوم في سبيل الحياة . وعلى بعد (٣٠٠) كيلومتر ما نزال نشعر بوجود جو، الا انه خفيف جداً حتى ليعد من قبيل السخف ان نسميه جواً .

ان القمر يزداد اتساعاً كلما اقتربنا منه، بينما الارض تتناقص وراءنا تدريجياً . وحين نحط عـلى سطح القمر ، وهذا الطريق لم يتطلب منا سوى ثانية او اكثر بقليل ، نستطيع ان نرى قريباً منا كوكباً براقاً جميلاً يحتل من الفضاء مساحة تساوي ثلاث عشرة مرة المساحة التي يحتلها القمر حين ننظر اليه من الارض . ماعسى ان يكون هذا الكوكب ؟ ولكنه الارض بدون شك .

ما يزال الظلام مخيماً في هذه المنطقة حيث وضعنا اقدامنا، ولكن الشمس لن تتـأخر عن الشروق . ان السماء تلمع فوق رؤوسنا ببريق لا يوصف والعين تكتشف فيها عن آلاف وآلاف من النجوم لا تكاد تعرفها وقد اتشحت بمـاطف من النور الشديد .

هذه سحابة من النور الشديد بدأت تظهر من ناحية الشرق وشكلها يشبه المغزل . انه الفجر . وسيكتسح هذا الفجر غير الطبيعي قبة السماء طوال ساعات وقد بدأت اشعة رفيعة من تاج الشمس تعلمنا بقرب طلوع كوكب النهار . والكرة الملونة تظهر طوال بضع دقائق وهي تلقي

على القمم العالية بقعاً حمراً من النور .
ولكن ما هذا الشعاع الازرق الشديد الذي انطلق فجأة من الافق البعيد ؟ ان خيوطاً من النور تنطلق بعده من كل ناحية وهذا هو النهار فلننظر حولنا ولنرَ اين نزلنا .

اي منظر غريب هو هذا! هذه الارض مضطربة قلقة معذبة فكأنما اتحدت ضدها كل القوى كي تجعل منها تيهاً من البراكين والاودية والجبال والصخور ، تجمعت او تفرقت دون اي نظام . ونحن نقف مشرفين على اطار واسع دائري ، او قل انه مسدس الشكل تقريباً ، يبلغ قطره (٨٠) كيلومتراً ويرتفع في الفضاء الى علو (٤٠٠٠ متر) هو بركان «كوبرنيكس».

أيمكن ان يكون هذا الجبل ، ومثله كثير على سطح القمر ، بركاناً ؟ وهل يمكن ان يكون هذا الاطار الضخم الواسع فوهته؟ ولو تسلحنا بمنظار لشاهدنا نحو الاعماق الجبل المركزي الذي كان يوماً القمة العالية للجبل . ان بينه وبين براكين الارض شبهاً كبيراً ، لكن هذا لا يضطرنا ابداً لقبول انه بركان .

ونحن نستطيع ان نقضي عمرنا كاملاً في دراسة هذا الجبل ونجد فيه كل يوم تفاصيل وخصائص جديدة هي نفسها التي نجدها في غيره من الجبال التي كثيراً ما تزيده ابعاداً . خذ مثالاً على ذلك «لاغرنج» فقطره يبلغ ١٦٠ كيلومتراً ، او «هرشل» فقطره يبلغ ١٤٥ كيلومتراً . اما «غوص» فيبلغ قطره ١٨٠ كيلومتراً و «غريبالدي» و « ستيفلر » يبلغان ٢٤٠ كيلومتراً قطرا .

ولا تعجب اذا رأيت هذه الاسماء ، وهي شهيرة على الارض لأبحاث اصحابها وعقولهم الجبارة ، قد انتقلت الى القمر . فهؤلاء رجال قد افادوا البشرية افادة كبيرة وخطوا بها في معارج العلم والتقدم خطوات واسعة ، فحق لهم علينا التكريم ، وما كانت هي لتبخل عليهم به ، فاطلقت اسماءهم على نجوم في السماء وجبال في القمر .

لندع الآن مركزنا هذا فوق قمة «كوبرنيكوس» كي نزور غيره من الاماكن ولننظر الى منطقة الجنوب ، انها تتبدى لنا هاوياتها السحيقة حيث لا يسمع لتساقط الصخور صوت ، وحفرها العميقة حيث يبقى تهافت الحجارة دون صدى . ان طريقها لعسرة صعبة وان نستطيع الوصول اليها بسهولة ، وخير لنا ان نأخذ طريق الشمال حيث المسير اسهل .

خذ حذرك . ان قوة الجاذبية هنا اقل منها على الارض ست مرات ، وهذا هو الباعث على الاحساس بالخفة الذي يسيطر عليك . وتذكر دوماً ، حين تحاول ان تقفز فوق حاجز ما ، ان كل محاولة على سطح الارض تمكنك من ان تعلو متراً في الهواء ، ستقذف بك هنا الى علو ستة امتار وهكذا فان ضآلة قوة الجاذبية هذه ستمكننا من الوصول الى اسفل الجبل بسهولة وسرعة .

ستكون الشمس قد اشرقت تماماً حين نصل الى سفح الجبل ، واذا كان يلزم للشمس على ارضنا دقيقتان وربع الدقيقة بين ظهور حافتها العليا وظهور حافتها السفلى فوق الافق ، فلا بد لها هنا على القمر من ساعة كاملة كي تفعل ذلك . واظنك تدرك السبب . ذلك ان كوكب الليل يدور (٢٨) مرة ابطأ من الارض وكل شيء على سطحه يتم نسبياً مع هذه السرعة ، وهكذا فمنذ الدقيقة التي تشرق الشمس فيها حتى الدقيقة التي تغرب فيها ، ينقضي زمن يساوي (٣٥٤) ساعة من ساعاتنا الارضية يعقبه ليل بالمقدار نفسه طولاً ، الا انه ليل لا يظلم تماماً ابداً ، لان الارض تعكس له جزءاً من نور الشمس .

وهذه الايام الطويلة ليست مجهولة عندنا ، فايام ارجائنا القطبية اطول بكثير . الا ان شمس هذه الارجاء ليست الا شمعة مدخنة اذا قيست « بالقوس الكهربائي » الذي يلمع في سماء القمر .

امامنا يمتد «محيط العواصف» ولكنه ليس محيط ماء ، بل صحراء صخرية مجدبة يقوم « كوبرنيكوس » في وسطها والماء منعدم في القمر . ولذلك فلا سحاب يخفف من اشعة الشمس المحرقة . كما انه لا جو يحيط بالقمر وهذا ما يجعل التنفس متعذراً ويجعلنا لا نسمع صوتاً قط ، فالصوت حركة اهتزازية ولا بد له من مادة تنقله ، وعلى الارض ينقله الهواء ، اما هنا فلا هواء وبالتالي سكون مطبق موحش .

لنمر من هذا المضيق الى شمال « كوبرنيكوس » الذي يؤدي الى « بحر الامطار » بين اطواد ترتفع بقممها فوق صحراء واسعة وجبال تنفتح في اعلاها هاويات يضيع البصر فيها ، ثم هضبات واطئة فيها بعض حفر قليلة تمتد حتى الافق البعيد .

ولكن اي امطار هذه واي بحار ، حيثما لا سحاب يعطي مطراً ولا مطر يؤلف بحاراً . الا سامح الله الفلكيين القدماء حين اطلقوا على هذه الصحارى المجدبة اسماء بحار ومحيطات .

ونستطيع ان نسير هكذا الساعات الطوال ونقطع خلالها مئات الاميال ، وتحتنا الصحراء الخالية بارضها الملتهبة ، وفوقنا سماء سوداء ، كقعر هاوية مظلمة تلمع فيها آلاف النجوم ، وتسطع في كبدها

شمس محرقة لا يحتمل حرارتها ونورهـا الشديدان . وعلى الارض يمتص الجو كل اشعة الطيف ما عدا الزرقاء ، وقليـلًا من البنفسجية ، ولهذا تبدو لنا سماؤنا زرقاء ، اما هنا فتصل لنا اشعة الشمس بكاملها ، وتبقى السماء فوقنا سوداء تطل علينا منها الآن عيونها غامزة ضاحكة .

وحين تصـل الشمس الى منتصف طريقها في سماء القمر ، ترتفع درجة حرارة سطحه حتى (١٠٠) درجة مئوية فتلهب اي كائن عضوي يتعرض لها ، اما في الليل فتهبط درجة الحرارة حتى (٢٧٠) تحت الصفر .

اي كائنات حيوانية كانت ام نباتية ، لا يمكنها ان تقاوم مثل هاتين الحرارتين العليا والدنيا ، او ان تقاوم مثل هذا التغير الهائل في درجات الحرارة بين الليل والنهار ؟ حقاً ان هذا ليس حلم عالم مات ، بل حلم عالم حيث لم تكن حياة قط .

ولكن هذه « الابنين » تظهر لناظرينا انها اجمل سلسلة في كوكبنا ، تمد امام وجهنا الافق من ناحية الشرق على طول (٦٤٣) كيلومتراً . وقد يبلغ عرضها في بعض النقاط ٢٥٦ كيلومتراً .

فلنتقدم دوماً نحو الشمال ولنحي في طريقنا سلسلة « دولف » المربعة التي ترتفع في . . . كدت اقول في الهواء ، حتى ٣٢٦٠ متراً ، وجبل « هويغنز » الذي تضيع قمته في ارتفاع (٥٥٠٠) متراً .

لنسر قدماً . الى يسارنا قليلاً يقوم الآن جبل « ارخميدس » الدائري وقطره الداخلي يبلغ (٨٠) كيلومترا . لنلق نظرة على « تبتيت » هذا البركان الصغير الذي اثار فضول الفلكيين الى حد كبير ، اذ ظن بعضهم انهم رأوا بالقرب منه باقة من الدخان . ونحن قد وصلنا الآن الى سفح جبال « الالب » القمرية حيث عادت ترتفع اطواد قليلة من بينها « الجبل الابيض » الذي يعـلو حتى (٣٦٥٠) متراً ، والى قـاعدته ينفتح واد عميق وبالقرب منه يرتفع اطار « افلاطون » .

والى الامام قليلا يقوم بركانا « ميسير » اللذان يظهران حيناً ويختفيان حيناً آخر وراء حاجز اشبه ما يكون بالدخـان .

وان هذه الظاهرة وظاهرة بركان « تبتيت » الذي رأيناه في طريقنا ، مع ملاحظة ان جبلها احد جبال القمر يختلف في شكله الحـالي عن الشكل الذي كان يصفه به الفلكيون منذ زمن قريب ، لتضع امامنا مسألة الفعالية الداخلية لنار القمر المركزية .

اما قطب القمر الجنوبي فانه يخبىء لنا المفاجأة الكبرى : سلسلة هائلة من الجبال . نسبيا اعلى بكثير من جبال « حملايا » على الارض . خذ مثـالا على ذلك « لبنيز » الذي يعلو حتى ٨٧٠٠ متراً ، او جبـال « درفل » الى جانبه وبعض قممها تصل الى ارتفاع (٨٠٠٠) متراً .

وهنا تقف عين الفلكي ، فالقمر كما رأينا لا يظهر للارض سوى وجه واحد . فما هي طبيعة وجهه الثاني ؟ لغز ، ولن يستطيع اي كائن انساني ان يحلها ، وهو على الارض .

وقد فرض بعضهم ان القمر بسبب جاذبية الارض ، قد تغير شكله واخذ هيئة بيضة يتجه جانبها الاطول نحونا . وقدرأينا عدم وجود جو في هذا الجانب . ولكن القمر ، اذ كان اكثر طولا من ناحيتنا ، كان وجهه الثاني اقرب الى المركز ، وبالتـالي اوطأ ، وسيكون الهواء قد تجمع كله في هذه المنطقة بالذات .

ولسوء الحظ ان الحساب الدقيق قد برهن على ان القمر كروي . واذا صح لنا القول ان الانخفاضات على القمر قد جرت كما هي على الارض حسب قانون ثابت ، فان هذا يدل على ان الوجه الثاني لا بد ان يكون شبيهاً ببعـض الشبه بالصورة السريعة التي اعطيناها للوجه الذي نراه .

وقد قلنا حتى الآن اننا لا نرى سوى وجه واحد من القمر ، اي نصف مساحته وهذا القول ليس صحيحاً كل الصحة والحقيقة هي ان قمرنا يتم دورتيه حول الارض وحول نفسه في وقت واحد ، الا ان محركه قطع ناقص ، لذلك فهو حين يدور ربع دورة ، يكون في الحقيقة قد قطع اكثر بقليل من ربع طريقه ، لذلك يرى الفلكي عـلى الارض عصابة جانبية من القمر مـا كان ليراها لو كان محرك القمر دائرة صحيحة .

وان حوادث مماثلة ، ناشئة عن اسباب اخرى ، تجعلنا نرى عصابة من شمال القمر وعصـابة من جنوبه . فمن جراء حركة التذبذب هذه نرى قسما من نصف القمر الثاني ، وكل شيء يجعلنا نعتقد ان للقسم الآخر نفس طبيعة القسم الذي يتجه نحونا .

ولكن الظل المتطاول ينذر نابقرب غروب الشمس وحلول الليل ، وقد حان الوقت كي نعود الى ارضنـا التي نراها في قلب السماء . وقد ابتدأ البرد يجتاحنا ، فلنترك هذه السهول اللامتناهية والاطوار الشيطانية وهذه الارجـاء حيث يعشش الموت والكآبة . فلنهرب من المنـاظر الخرساء حيث الوحدة القاتلة ، وهذه القمم شاهقة العلو حيث لا تهب ريح قط . فلنفر من هذه الصحارى الجرداء حيث لا واحة ولا عشب ، وقد تركتها الحياة الى الابد .

فلنفر من بلاد الصمت القاتل كي نعود الى حيث الحياة والضجيج .

دمشق فؤاد ايوب

الخطاب المبتور

☆



بقلم سعيد تقي الدين

وقعدنا في ديوانه نتحدث صامتين . انا والباشا . اصغي انا الى افكاره فاسمعه يقول «انا الوزير وهذا ديواني . ان صحف بيروت تطبع صورتي وتنشر اخباري كل يوم . بين يديَّ سيف السلطة ، وجاه الحكم ، وابّهة السلطان . انا عشير الملوك وخليل السفراء . ايماءة من اصبعي على هذا الزر ، تسيّر جيشاً : من هذا الشبح الجالس امامي الطافر من ظلمة ماض بعيد؟! بلى عرفته في الجامعة ، ولكن ذلك كان منذ ربع قرن . وليكن اسمها جامعة فهي مدرسة على كل حال . وماذا يهم ان كان هذا الرجل ذا شأن في ايام التلمذة ومتفوقاً عليّ ؟ ! . هذه مدرسة الحياة وانا فيها وزير . اما هو – من هو هذا العائد من مهجر يجهل موقعه اساطين الجغرافية؟ ومن يأبه لتلك التسعة الدولارات والثلث من الدولار التي قيل انه جاء بها من غربته ؟! وماله يقتعد ذلك الكرسي متثقلاً بثقة النفس ؟ ! وما هذه البسمة الساخرة على شفتيه ؟! تراه تحدثه نفسه انه احق بمقعدي مني والله . . .

وانصت هو الى صمتي فراعته رعود تفكيري وبروقه « الله ، الله ! هذا نديم بعينه . رحم الله عهد التلمذة ، يوم كان مسعود يتبّع خطواتي مبصبصاً بذنبه ، متودداً اليَّ ، يستكتبني خطاباً او يرجوني ان اصلح له مقالاً ، ثم يستعطفني ان اتوسط له صحافياً ينشر له ذلك المقال .

بلى كان مسعود موسراً فابوه يغدق عليه بالحوالات من اوستراليا . وكان مسعود انيق الثياب . ولقد اوحت اناقته وفخامة مظهره الاجوف الى احد مجان الجامعة « سمير ملّوك » ان يطلق عليه لقب « الباشا » ، وهذه خمس وعشرون سنة مرّت ، تقلب خلالها مسعود على كراسي الحكومة حتى منحه ملك عربي لقب باشا .

فصار « الباشا » باشا من صحيح . هل انتقمت الايام منا ام انصفت مسعوداً ؟ . وكدت اقهقه هزءاً بنفسي وبسمير ملوك ، ام هزءاً بمسعود – لم ادر .

ولبثنا في صمت يشق دويه الآذان حتى التقت عيوننا فابتعد اللؤم عن نفسينا ، وذبنا نحن الاثنين في ضحكة طاهرة ، هي سكرة الروح اذ تستل من ذكريات صباح العمر اشعة تنفذ الى كوى النفس فتثير ظلمة كهولتها وتبخر ما فيها من قذارة فنسينا الخصام والتفوق والحسد . ومضت ساعة انس ودعاب . فلما هممت بالانصراف صاح بي مسعود « اذاً انت عازم على زيارة « سرابايا »؟ ما اجمل هذه المصادفة انا قاصد الى « سرابايا » . هي في قائمقامية «العباسية» . ما اسمه – صديقك الذي قتل في «الفلبين »؟ رشيد المغربي؟ بيت المغربي جماعة « اوادم » . في الانتخابات الماضية اعطونا اكثرية ٩٤ صوتاً . سآمر الحاجب ان لا يطلب منك بطاقة حينما ترجع في صباح الغد . ادخل هذا الديوان فور وصولك . نمشي حوال الساعة العاشرة . . على « فوقه » – يجب ان « تنسفهم » خطاباً .

اذن كنت نسيت صنعة الخطابات في ديواني كاتب لا بأس به يحسن انشاء الخطب، لا تدفع له شيئاً فماشه يكفيه، وانا دائماً اتصدق عليه بشيء . رويدك . و كبس الزر الكهربائي كبستين طويلتين، وكبسة قصيرة فما اسرع ان هرول الينا رجل اصلع شاخ فتياً فزرر سترته وانحنى متضعاً امام الباشا . فخاطبني الباشا مشيراً الى الكاتب لعلك تذكره . هذا « سمير ملّوك » .

***

ولقد علمتني الغربة احترام الوقت وتقديس المواعيد فمثلت في ديوان الوزير في الساعة العاشرة من صباح اليوم الثاني فلم اجده هناك . وبعد انتظار ساعة اقبل في طليعة جماعة تواكبه وجثم على كرسيه يتحدث معهم بشؤون لم افهم مغازيها فمن بحث في سباق الخيل الى الاعجاب بفلم مصري ظهر حديثاً ، الى نقد قصيدة رثاء ، الى مفاضلة بين سيارتي « كريسلار » و« بويك » . وانا بينهم صامت مشدوه حتى جاءت ساعة الظهر فدعاني الباشا الى الغداء معه ولم نترك بيروت حتى الساعة الواحدة بعد الظهر اذ سرنا في قافلة سيارات تحمل جنوداً وموظفين . وكنا كلما بلغنا قرية اوقف الموكب جمهور القرويين وتبادل الوزير الخطب معهم والاحاديث السياسية واذكر ان وظيفة معاون في كمرك بيروت كانت شاغرة في ذلك الحين وكان الوزير يعد بها عشرة اشخاص في كل قرية نمر بها . وكان الباشا يباهي امامي بدهائه السياسي . « السياسة » ، وتفاسف الباشا « هي اخذ وعطاء خذ مواعيد باصوات انتخابية ، واعط وعوداً بوظائف حكومية » .

قلت واذا جاء يوم الحساب فكيف تبر بوعودك لهؤلاء ، وتقعدهم كلهم في كرسي واحد ، اتراك تفعل المستحيل وتكذب علماء الطبيعة ؟ . فابتسم وقال ان السياسي هو رجل يفعل المستحيل ووظيفة معاون الكمرك اتفقنا بالامس مع دمشق ان تكون لسوري . وقهقه .

وراح الباشا الوزير يضخم في عيني نفسه كلما اوغلنا في هذه السفرة ، فطفق يحدثني من جديد عن ذلك الكتاب الذي يهم بتأليفه ، وانه يستمد عناصره من الحياة مباشرة . وصار الكتاب يضخم بعد كل استقبال، حتى حسبت انه اذا استمرت استقبالات الاهالي فسيصبح الكتاب دائرة معارف .

وهونَ الله فبلغنا سراي « العباسية » وكان الاستقبال هنالك رائعاً اذ أتت وفود القرى ببيارقها ، واستلفت نظري علم «سرايايا» المتعدد الالوان . وعلا الهتاف للوزير وسرعان ما اعتلى الباشا منبراً وراح يخطب في الشعب ، فبعد ان تغنى بالعباسية وامجادها التاريخية وأكد لسامعيه ان أياً من ابناء قائمقامية «العباسية» يفوق سوبرمان، وطرزان ، وغاندي ، وانشتين ، ونيوتن ! وعلي الزيبق او هنري فورد او عنترة العبسي ، تخلص الى ذكر « الفلبين » والفاجعة التي نزلت بالشرق المتوسط باستشهاد البطل رشيد المغربي ، وان الباشا حينما علم بالخطب من صديقه ، واشار اليّ ، اسرع فسألني ان آتي بنفسي لاحمل لبني العباسية وصية شهيدهم الاخيرة .

اذ ذاك اشرقت عليَّ الحقيقة حين عرفت ان زيارة الباشا للعباسية لم تكن صدفة وانه اقتادني الى هناك ليستثمر حضوري ويبتاع به اصواتاً انتخابية . وكأنه لمح حنقي ، وكنت الى جانبه على المنبر ، فاخذ يقدّمني للجمهور ، ويعزو اليَّ مقاماً سياسياً في المهجر لم احلم به ، وغمرني بالقاب علمية لم اسمع بها ، ولقبني بسوأل لبنان الذي تحمّل اخطار الاسفار ومشاقه الى لبنان لاحمل وصية الصديق الاخيرة .

الاستاذ سعيد تقي الدين

وجاء دوري للخطابة فنهضت وفتحت فمي :

ايها الاخوان :

كان رشيد المغربي بين يديَّ حينما لفظ انفاسه الاخيرة .

فهز حامل علم « سرايايا » بيرقه وصاح فليحيي « بطل سرايايا » فاجابه فتى يحمل علم « الفحيص » اخرس ، ان رشيد المغربي ابن الفحيص . فليحيي رشيد المغربي بطل الفحيص . وتطايرت الشتائم واشتبك بنو القريتين في معركة بترت خطابي فوجمت واتخذت موقفاً حيادياً . ولقد علمتني معارك « الفلبين » ان الحذر كل الشجاعة ، فهرعت ابتغي مكاناً قصياً ، غير ان امواج المعركة

غمرتني ، ولم ادر الا وعصاً كسرت على كتفي الايسر فماجت الدنيا في عيني ووقعت على الارض استمع الى اصوات القتال بيمنى اذنيّ ، واصغي باليسرى الى زقزقة عصافير الجنة .

وفرّق الجند بين المتقاتلين ، وتوسّط العقلاء ، فسكنت الجلبة واعتلى الوزير المنبر ثانية ، فبعد ان مجّد قرية « سرابايا » وعظّم ضيعة « الفحيص » ، ذكر ان الشهيد رشيد المغربي ولد في « سرابايا » فهو ابنها غير منازع (هتاف من بني سرابايا) غير ان املاكه في « الفحيص » وزوجته منها ، وفيها كان عداد تذكرة نفوسه فهو بدون شك فتى « الفحيص » (هتاف من الفحيصيين) . وكان الباشا يودّ ان يطلق على الشهيد لقب « بطل القريتين » ولكنه يريد ان يزيد الى امجاد « المباسية » التاريخية فتحاً جديداً فهو يرغب الى الجمع ان يوافقوه على تسمية الشهيد « بطل المباسية » فدوى الهتاف ، واطلق الرصاص ، وهاج القوم فرحين مؤيدين اقتراح الوزير في حكمته السليمانية فشكرهم الباشا وتمنى الشفاء العاجل للاربعة عشر جريحاً .

حينئذ تقدّم زعيم المقاطعة وبلّغ الوزير قرارات القوم التالية :

اولاً — مطالبة الحكومة الاميركية بتعويض مالي لاسرة الشهيد .

ثانياً — اقامة تمثال لـ «بطل المباسية» وتوجيه الدعوة للتبرعات الى المهاجرين في انحاء الدنيا .

ثالثاً — مطالبة رئيس الجمهورية اللبنانية بتعليم اولاد الشهيد على نفقة الحكومة .

رابعاً — شكر فخامة الوزير لعطفه على المقاطعة .

خامساً — ارسال تلغرافات الى صحف بيروت بهذا المعنى .

***

قال الوزير لسائق السيارة « تمهل » . واوضح لي « اريد ان اتمتع بمشهد هذا المغيب . اود في كتابي ، وصف سيارة تنحدر الى بيروت عند الغروب . وعلى ذكر كتابي آسف انك لم تنه خطابك . قل لي ماذا كانت كلمات الشهيد الاخيرة فقد سمعت انه مات بين ذراعيك .

اجبت « لقد نطق بكلمة واحدة قبل ان يلفظ انفاسه .

— ايّ كلمة ؟

— كلمة « آخ ! » .

— قل لي كيف صرع ؟

— كان بين نارين .

— اليابانيون والاميركان ؟

— اليابانيون وزوجته .

— وكيف كان ذلك ؟

— ارادت زوجته ان تغسل فسطانها ، فامرت زوجها رشيد المغربي ان يملأ لها سطل ماء من قسطل قرب اليابانيين فلما دنا منهم صوّبوا البنادق وامروه بالرجوع .

— ولماذا لم يرجع ؟

— لأن امرأته امرته ان يملأ السطل ماء . . .

— اذاً فقد مات . . .

— حاملا سطلًا .

قال الباشا « اريد ان اصف ، في كتابي الجديد كيف يتفجر الدم من صدر قتيل . قل لي بمَ شعرت حين رأيت الدم يفور من صدر صديقك .

— لم يكن هناك من دم .

— اذاً كيف قتل رشيد المغربي .

— الخوف قتّال يا باشا .

وقبل ان نترجل من السيارة في بيروت شعرت انه جاء دوري بالقاء سؤال فتطلعت اليه وسألته بلهجتنا ايام التلمذة : «مسعود كيف حذقت هذا النفاق ؟ » فضحك حتى كاد يغمى عليه ، وامسك بكتفي الصحيحة وخاطبني بلهجة الحكيم يعظ احمق فقال « الصدق قتّال يا باشا » .

وحينما غابت سيارته عن عيني وانقطع صوت قهقهته تباجت لي الحقيقة المؤلمة ، وهي ان مسعود ألبسنا في زمن الكهولة وفي مدرسة الحياة لقباً خلعناه عليه ايام الصبى وفي مدرسة التلمذة فخاطبت نفسي معترفاً بلقبي الجديد « هذه حال الدنيا يا باشا » .

مانيلا — الفلبين

سعيد تقي الدين

نحو الذات

أنا الانسان اذابت خطاي نحو الذات اسطورة الفناء
اسعى الى نفسي ، حيث المجهول لحنٌ لم يتم بعد

☆

أنا باقٍ هنا ، فلا ترهبي الموت ، ولا تجفلي من الرقباء

كل قلبٍ قلبي ، وحسنك مني ، غمر الكون بالبها الوضاء

تتجلين لي كما أنا أهوى صوراً في تعدّدي وانتمائي

فاذا نحن قبل كلٍ من الذات اندياحٌ في أفقنا للبقاء

من وجودي يا سرّ نفسي ما تدرين أو ما جهلت من أسماء

عالمي وحدة المحبة ، لا شيء سوانا يعدّ في الاحياء

فاقربي كلما قربتِ تذكرتِ هوى كان وحدة الاشياء

قد بلغنا .. ابلغتِ بي غاية الحب ، فهذي الدنى ظلال عطائي

أمنح الكائنات من وحدة الذات خلوداً مسترسل الاضواء

***

حلوتي حلوتي جمالٌ هوانا وبنا كل فتنة وبهاء

أنا باقٍ هنا ، معي انت شوق ، لمصير يجتاز وهم الفناء

في اندفاعي شموخ جبهة ربٍ تقف الارض ذرة في فضائي

أنا ذيالك البعيد ، انا الانسان ، دنيا تضيع في كبريائي

درعا ــ سوريا
علي محمد شاهين

الطريقة العلمية عند العرب

بقلم قدري حافظ طوقان

عضو الجمعية الملكية الاسيوية في لندن وجمعيات العلوم الرياضية
في انكلترا وامريكا ومجلس التعليم العالي في فلسطين

☆

لقد وجد عند العرب وبين علمائهم من كشف عناصر الطريقة العلمية المعروفة الآن والتي تميز هذه الحضارة عن الحضارات السابقة . وموضوعنا يدور حول السؤال الآتي: هل وجد في العرب من سار على الطريقة العلمية؟ ما كنت اظن ان للعرب اثراً في كشف عناصرها او التمهيد لها حتى تناولت بالبحث مآثر العرب في الطبيعة واطلعت على كتاب (الحسن بن الهيثم بحوثه وكشوفه البصرية لمصطفى نظيف بك) ويشتمل هذا الكتاب النفيس القيم على ابحاث علم الضوء الموجودة في كتاب المناظر لابن الهيثم وفي مقالات اخرى وقد اخذها مصطفى نظيف بك اخذ الباحث واستجلى اتجاهات التفكير فيها، وانتهى بعد ان درسها ومحصها واعمل فيها التحليل والموازنة والمناقشة الى ان ابن الهيثم «.. قد توافرت فيه ميزات اولي التفكير العلمي الصحيح ..» وهي نتيجة تدل على مدى نضج الفكر وعمق النظر في عصر ابن الهيثم .

والواقع انه لم يخطر ببالي ان الطريقة العلمية الصحيحة قد عرفها ابن الهيثم على النحو الذي وردت في ابحاثه في الضوء .

وارى قبل التدليل عليها ان ألفت النظر الى ان علماء العرب لم يتوسعوا في الطريقة المذكورة كما توسع بها علماء اوروبا ولم يبالغوا في استغلالها الحد الذي وصل الغرب اليه كما انهم لم يدركوا ما لهذا الاسلوب من شأن خطير في تقدم العمران . ولكن يمكن القول ان كتاب المناظر (لابن الهيثم) يدل على انه وجد في العرب من سار في ابحاثه على الطريقة العلمية كما وجد بين علمائهم من سبق بيكون Bacon في انشائها، بل ومن زاد على طريقته التي لا تتوافر فيها جميع العناصر اللازمة لمنهج البحث العلمي . اما العناصر الاساسية في طريقة البحث العلمي الحديث فهي: الاستقراء والقياس والاعتماد على المشاهدة او التجربة والتمثيل .

ولقد ادرك ابن الهيثم الطريقة المثلى وقال بالاخذ بالاستقراء وبالقياس والتمثيل وضرورة الاعتماد على الواقع الموجود على المنوال المتبع في الابحاث العلمية الحديثة . ففي كتاب المناظر عند البحث (مثلاً) في كيفية الابصار واختلاف العلماء فيه يقول: «.. ونبتدىء في البحث باستقراء الموجودات وتصفح احوال المبصرات وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الابصار، وما هو مطرد لا يتغير وظاهر لا يشتبه من كيفية الاحساس، ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاد المقدمات والتحفظ من الغلط في النتائج . ونجعل غرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننتقده طلب الحق لا الميل مع الآراء ...» الى ان يقول: «... ولعلنا ننتهي بهذا الطريق الى الحق الذي به يثلج الصدر ونصل بالتدرج والتلطف الى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف وتنحسم بها مواد الشبهات .. وما نحن مع ذلك براء مما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية، ولكننا نجتهد بقدر ما لنا من القوة الانسانية ومن الله نستمد العون في جميع الامور ...»

ومن اقواله هذه تتجلى لنا الخطة التي كان يسير عليها في ابحاثه وان غرضه في جميع ما يستقريه ويتصفحه (استعمال العدل لا اتباع الهوى) وبعد ذلك نراه يرسم الروح العلمية الصحيحة ويبين ان الاسلوب العلمي هو في الواقع مدرسة للخلق العالي فقواعده التجرد عن الهوى والانصاف بين الآراء فيكون قد سبق علماء هذا

العصر في كونه لمس المعاني وراء البحث العلمي الحديث . وكان يرى في الطريق المؤدي الى الحق والحقيقة (ما يثلج الصدر) على حد تعبيره . وهذا مــا يراه باحثو هذا العصر من رواد الحقيقة العاملين على اظهار الحق . فان وصلوا الى ذلك فهذا غاية مــا يبغون ويؤملون .

وابن الهيثم في طريقته العلمية التي اتبعها في ابحـاثه وكشوفه الضوئية قد سبق بيكون بطريقته الاستقرائية ، وفوق ذلك مما عليه وكان اوسع منه افقاً واعمق تفكيراً . وهو وان يعن كما عني بيكون بالتفلسف النظري وبتأليف المؤلفات التي يعرض فيها الآراء النظرية في طرق البحث ويلزم بها العلماء الزاماً ، فحسبه انه اتبع الطريقة الصحيحة في ابحاثه وجرى عليها عملاً وفعلاً وان الامرجاء منه عن بينة وروية وامعان فكر وحسن تقدير .

ويذهب نظيف بك الى ابعد من هذا فيقول :

« . . . بل ان ابن الهيثم قد عمق تفكيره الى ما هو ابعد غوراً مما يظن لاول وهلة ، فادرك ما قال به من بعده (ماك) و (كارل بترسون) وغيرهما من فلاسفة العلم المحدثـين في القرن العشرين . . . » ادرك الوضع الصحيح للنظرية العلمية وصفتها الحق بالمعنى الحديث . ويستشهد على ذلك بما رواه البيهقي عنه . قال « . . . وكان ابن الهيثم يقول في بعض رسائله تخيلنا اوضاعاً ملائمة للحركات السماوية فلو تخيلنا اوضاعاً اخرى ملائمة ايضاً لتلك الحركات لما كان في ذلك التخيل مانع ، لانه لم يقم البرهان على انه لا يمكن ان يكون سوى تلك الاوضاع ، اوضاع اخر ملائمة مناسبة لهذه الحركات . . » وهنا يقرر ابن الهيثم ان نظرية بطليموس في الحركات السماوية التي تخيلها الاقدمون لا يوجد برهان يحتمها ، وعلى ذلك يأخذ بهذه النظرية اذا كانت ملائمة للواقع من تلك الحركات ويجيز قيام نظرية بجانب نظرية اخرى ما دامت هي ايضاً تلائم وتناسب الواقع المعلوم . وهو في تفكيره هذا قد اجاز استبدال النظرية الفلكية الحديثة بنظرية بطليموس قبل ان يضطر العلم الى ذلك بقرون « بل هو قد اجاز الموقف الذي يقفه علم الطبيعة الحديث في الوقت الحاضر ازاء نظرية الكم والنظرية الموجية مثلاً . . »

والآن يمكن القول انه من نصوص اقوال كثيرة لابن الهيثم ومن كتابه المناظر تبين ان تفكيره قد اتجه الوجهة التي يتجه اليها التفكير العلمي الحديث ، وانه ليس من المغالاة في شيء ان نقول انه قد ادرك عن بينة الطريقة الحديثـة للبحث العلمي وادرك الاوضاع الصحيحة لما نسميه الحقائق العلمية .

وفعلاً سلك ابن الهيثم في ابحاثه الطريقة الحديثة في البحث وقد وصل بسلوكه الى الحقيقة التي ينشدها بالمعنى الذي رآه ، وهذا ما يتجلى بأجلى بيان وابلغ صورة في الكتاب النفيس (الحسن بن الهيثم ، بحوثه وكشوفه البصرية) تأليف مصطفى نظيف بك .

ومن الحق ان اشير اشارة بسيطة الى موضوعات كتاب المناظر فلقد استدل ابن الهيثم في جميع ابحاثه في الضوء على القواعد والقوانين الاساسية بتجارب واستعان باجراء التجارب للقصد الذي نتوخاه الآن . وذهب الى ابعد من هذا فقد ادرك قيمة التجربـة في الابحاث العلمية ، فهو لا يعتمد على التجربة في اثبـات القواعد او القوانين الاساسية فحسب بل يعتمد عليها ايضاً في اثبات النتائج التي تستنبط بعد ذلك بالقياس من تلـك القواعد والقوانين . ومن ميزات ابن الهيثم انه كان يشرح الجهاز ويبين وظائف اجزائه المختلفة . واستعمل اجهزة مبتكرة لشرح الانعكاس والانعطاف . وتدل تجاربه وحساباته انه استطاع ان يجمع بين مقدرته الرياضية وكفايته العلمية الممتازة « يدل عليها صنع الاجهزة واستعمالها في الاغراض المختلفة » .

الاستاذ قدري حافظ طوقان

كذلك يمتاز كتاب المناظر بعناية ابن الهيثم بالقياس . فهو بعد ان يثبت المبادىء الاولية بالتجربة يتخذ تلك المبادىء قضايا يستنبط منها (بالقياس) النتائج التي تفضي اليها . ويشرح على هذا النمط كثيراً من الظواهر الهامة في الضوء . ويتبين من مباحث الكتاب ايضاً ان ابن الهيثم ادرك قيمة التمثيل في الابحاث العلمية ولهذا استعان به في بعض المواضع وكان موفقاً به فيها ، وفي احدها كان مبتكراً وملهماً .

والذي نستخلصه من مآثر ابن الهيثم ونتاجه الفكري انه سلك في البحث سبيلاً تتوافر فيه خصائص البحث العلمي . وقد خرج نظيف بك من دراسته ابحاث ابن الهيثم في الضوء بالقول الآتي : ليكن ابن الهيثم قد استفاد بمعلومات وابحاث من تقدموه ، فقد استفاد حتماً طوعاً او كرهاً . ولكنه اعاد البحث في كل هذه الامور من جديد ونظر فيها جميعاً نظراً جديداً لم يسبقه اليه احد قبله . واتجه في هذا النظر وجهة جديدة لم يولها احد من المتقدمين واصلح الاخطاء واتم النقص وابتكر المستحدثات من المباحث ، واضاف الجديد من الكشوف وسبق في غير قليل من ذلك الأجيال

الالزام الاخلاقي عند برغسون

بقلم جلال فاروق الشريف

☆

ان وراء الافراد توجد قوة تضغط عليهم . هذه القوة هي المجتمع والعادة في المجتمع هي بمثابة الضرورة في الطبيعة ، اما الحياة الاجتماعية فليست سوى طائفة من العادات المتأصلة ، فالعادة قوة تضغط على الارادة واذا تجاوزها الفرد عاد اليها ومن هنا ينشأ الالزام في العادة . والالزام الاجتماعي اقوى من العادة والفرق بينهما هو فرق في نوع الالزام كما انه ايضا فرق في طبيعته فالعادات متصلة فيما بينها ويسند بعضها بعضاً وكل منها تلبي مطلباً اجتماعياً، لذلك فهي تكوّن جملة واحدة والزاماً عاماً يبدو لنا بشكل الزامات صغيرة ، وهذا الالزام العام يستمد وجوده من هذه الالزامات الصغيرة ، كما ان هذه الالزامات بدورها تقوي الالزام العام الذي يهب هو ايضاً كلاً منها قوة كقوته .

> ان الشعور بضرورة المجموع هذه التي نشعر بها من خلال جواز الاشياء ، هو ما نسميه بمجموع الالزام الاخلاقي .
>
> برغسون

والمجتمع البشري مجموعة كائنات حرة، الا ان الالزامات التي يفرضها هذا المجتمع فتمكنه من البقاء انما تدخل عليه نوعاً من النظام الذي يشبه النظام الطبيعي . فالفرد عندما لا ينفذ الالزام الاجتماعي فانه على الاقل يتظاهر باطاعته فيظن كل فرد ان الآخر ينفذه وكذلك الدين فانه يدعم مطالب المجتمع ويتممها فالمجرم الذي ينجو من العقاب يدعي الدين انه سيعاقبه في الآخرة فيتم الالزام ويصبح ضرورة ويزول الفرق بين الامر الاجتماعي والقانون الطبيعي وكذلك الانسان ايضا فانه يظن بالبداهة انه حر الا ان ارادته لا تكاد توشك على الظهور حتى تجد هذه الارادة ان ثمة قوة معاكسة قد انبثقت من نفس الانسان هذه القوة الاجتماعية ، فالضرورة هنا مصحوبة بامكان التخلص منها .

هذا الالزام لا يربط الافراد مع بعضهم فقط وانما يربطهم ايضاً مع انفسهم ، فالفرد حين يكون ملزماً امام الناس فانه في الحقيقة يكون كذلك امام نفسه ، فالانا الاجتماعية منضمة الى الانا الفردية ، واتجاه الفرد نحو نفسه هو اتجاه نحو المجتمع ايضاً

والعصور . واستوفى البحث اجمالا وتفصيلا . وسلك في البحث سبيلا تتوافر فيه خصائص البحث العلمي مع ما في هذه الطرق من قصور ومع ما فيها من ميزات . واستطاع ان يؤلف من كل ذلك وحدة مترابطة الاجزاء على قدر ما كان يمكن ان ترتبط به اجزاؤها في عصره . ان وجدنا فيها عيباً او نقصاً فتلك سنة الله في المباحث العلمية ، وهو فيها لم يبدع ولم يبتكر فحسب ، بل هو ايضاً اقام بها الأسس التي ابتنى عليها صرح علم الضوء من بعده .

نابلس — قدري حافظ طوقان

والانسان لا يستطيع ان ينعزل انعزالا مطلقا عن الناس .

والمجتمع دائرة مركزها الفرد، وبين الفرد ومحيط هذه الدائرة اصطفت دوائر مركزية آخذة بالاتساع تمثل الطوائف المختلفة التي ينتمي اليها الفرد في حياته مع اسرته وفي مهنته يخضع لاوامر المجتمع فالواجب يتحقق آليا ويكفي الفرد ان يرخي زمام نفسه ويستسلم لها .

الا ان الواجب قد يبدو لنا امراً قاسياً وذلك عندما تقتضي منا احيانا طاعة هذا الواجب مقاومة الذات ، والسبب في هذا اننا نعي بعض اجزاء الواجب وعياً شديداً فنتردد ، فيكتفي الواجب بمجموعة هذه الصيغة ، فيتفق لنا ان نحيد فنشعر بالمقاومة وعندما نحاول العودة وان نقاوم هذه المقاومة الناشئة عن حيدنا عن الواجب ، نصبح في حالة من التوتر نشعر معها بالصلابة وهي التي تعطي الواجب هذا المظهر القاسي .

ونحن عندما نريد العودة الى الواجب الذي حدنا عنه نحاول ان نقنع انفسنا بالحجج وبنور انفسنا بطرق عقلية، الا ان الواجب ليس اساسه العقل بل انه يحاول ان يزيد الانسجام المنطقي في السلوك الخاضع للمطالب الاجتماعية ، هذا السلوك الذي يتخذ شكلا مطلقا كاملا مال عن العقل واصبح غريزيا .

والمجتمع انسانيا كان ام حيوانيا هو عبارة عن نظام وجملة من القواعد والقوانين فاما ان يحياها المجتمع من غير ان يشعر بها وهو المجتمع الحيواني ، واما ان يحياها ويتمثلها وهذا هو المجتمع الانساني . فالمجتمع الحيواني ثابت وكل شيء فيه ضرورة ، اما المجتمع الانساني فمفتوح لكل انواع التقدم ، ولقد كان يمكن ان يكون غريزيا لو لم يكن العقل موجوداً فيه .

فالغريزة الاجتماعية الكامنة في اعماق الواجب الاجتماعي انما تستهدف ابداً مجتمعاً مغلقا مهما كان هذا المجتمع واسعاً ، فهي لا تستهدف الانسانية لان الامة مهما اتسعت فان بينها وبين الانسانية ما بين المغلق والمفتوح والمحدود واللامحدود ، والذين ينظرون الى الاسرة والامة والانسانية التي يضم كل منها عدداً متزايداً من الافراد، يستنتجون من ذلك ان الاتساع في موضوع الحب ، اي في عدد الافراد يجب ان يقابله اتساع في الحب نفسه ، وهذا نتيجة لفهم النفس فهماً عقلياً محضا .

فالاسرة والمجتمع قد ارتبطا ببعضهما ارتباطاً وثيقاً اما المجتمع والانسانية فالفرق بينهما هو فرق في النوع لا فرق في الدرجة فحسب ، فمحبة الاسرة وابناء الامة هي محبة طبيعية مباشرة اما محبة الانسانية فانها مكتسبة عن طريق الدين وعن طريق العقل ، وفي كلا الحالين لا نصل الى هذه المحبة مارين بالاسرة فالامة ، وانما نحن نتخطاها بقفزة ، فنحن اذن ازاء ضرب جديد من الواجب قد قام فوق الضغط الاجتماعي .

ان علينا واجبات تجاه المجتمع وواجبات تجاه الانسانية ، فالحياة الاجتماعية تفرض علينا واجبات تجاه المجتمع فنحن ملزمون امامها الزاماً طبيعياً ، الا ان هنالك اخلاقاً اخرى انسانية وليست اجتماعية فحسب وهي تأتي بعد الاخلاق الاولى وقد تجسدت في شخصيات ممتازة كلما اقتدى الناس بها نالوا التخلق الكامل ، والفرق بين هذين النوعين من الاخلاق هو كالفرق بين الامة والانسانية، ليس فرقا في الدرجة فحسب، بل فرق في الطبيعة ايضاً، فالاخلاق الاولى تزداد صفاء كلما رددناها الى قوانين لا شخصية بينما الاخلاق الثانية لا توجد ما لم تتجسد في شخصية ممتازة، فشمول الاخلاق الاولى يأتي من قبول الناس عامة لقانون من القوانين، بينما شمول الثانية يأتي من محاكات الناس لمثال يحتذونه ، فالواجب في الاولى ضغط ودفع وهو في الثانية نداء ، وحب الانسانية هو الصفة المميزة لها، الا انه ليس جوهرها لان هذه الاخلاق الثانية لا تؤثر مباشرة من غير وسيط .

فالوضع الذي يقابل الالزام في الاخلاق الاولى انما هو وضع فرد منكفيء على نفسه لهذا فالنفس مغلقة ، اما في الاخلاق الثانية فالنفس لم تقتصر على المجتمع وانما تعدته الى الانسانية . والانتقال من الحالة الاولى الى الحالة الثانية لم يكن بتمدد الذات وتوسعها لان حب الاسرة وحب الوطن وحب الانسانية ليس عاطفة واحدة تشمل عدداً متزايداً من الافراد ، فبين حب الاسرة والوطن من جهة، وحب الانسانية من جهة ثانية تباين في الطبيعة لان الوضع الاول ارادته الطبيعة ، بينما الوضع الجديد مكتسب تم بواسطة رجال كانوا مثالاً يحتذى والقوة التي تعادل الضغط الاجتماعي في الاخلاق الثانية انما هي قوة الحساسية فالانتفاضة التي تحدثها العاطفة تشبه الالزام شبهاً قوياً ، والانفعال مهما كان هادئاً فانه يقتضي العمل ، فهو يشبه الالزام من حيث انه يفرض شيئاً ما ، الا انه يخالفه في انه لا يلقى مقاومة .

وهناك نوعان من الانفعال ، الاول هو العاطفة التي تلي فكرة فتكون الحالة الانفعالية ناتجة عن حالة عقلية تسبقها ،

والانفعال الثاني هو سبب الحالات التي ستعقبه فهو يسبقها في الزمن ويعلو عليها في القيمة فهو مبدع الافكار .

وليس من الخطأ ان نربط مواهب الفكر العليا بالحساسية ، لان هناك فرقاً بين العقل الذي يناقش ، وبين العقل الذي يبتكر ويبدع فالابداع يعني العاطفة قبل كل شيء في مجال الادب وحتى في مجال العلم ايضاً . فهناك العقل والى جانبه الانتباه الذي كلما ازداد ، ازداد معه تركيز العقل ، وبما ان الانتباه لا يكون واحداً في جميع الحالات لذلك فقد اضطر علم النفس الى ان يدخل الاهتمام الى جانب الانتباه ، اي الى ادخال الحساسية بصورة ضمنية .

فالامر الذي يثير الاهتمام هو امتثال مبطن بانفعال ، والانفعال هو الذي يدفع العقل الى الامام ، وان انعاشه للعناصر العقلية التي يتحد بها واحياءه لها كل ذلك انما هو نتاج انفعال فريد في نوعه ، لان المواد التي يقدمها العقل تنصهر في بوتقة الانفعال ثم تخرج منها وقد صبت افكاراً جديدة . وانه الى جانب الانفعال الذي هو اثر للتصور ، هناك انفعال يسبق هذا التصور ويحتويه على صورة الكمون، وهو سبب له الى حد ما .

انه ليس في استطاعة اي تفكير ان يخلق الزاماً . ومهما بلغت النظرية من الجمال ففي الوسع ان لا تقبل ، وهبها قبلت فان في وسع الفرد ان يدعي لنفسه الحرية في ان يتصرف كما يشاء ، اما اذا وجد الانفعال فانه يثير الفرد فيصنع ما يريد دون اكراه او ضرورة ولكن عن ميل طبيعي . وهو لا يفسر عمله بالانفعال نفسه وانما يستنتجه من النظرية التي شادها الانفعال .

فالدين لا يفرض اخلاقه الجديدة بفلسفته الميتافيزيكية ولا بأفضلية هذه الاخلاق على غيرها لان العقل يحتاج عندها الى مثل اعلى عند المفاضلة ، فهناك قبل كل شيء الانفعال ، متى استولى على النفس تبعه سلوك معين وانتشرت على اثره عقيدة فلا الارادة هي الفاعلة ولا العقل ونحن انما نسلم بكلا التعبيرين عندما نحس بالمعبر عنه .

فالالزام في نصف الاخلاق يفسر بضغط المجتمع على الفرد ، واما في النصف الآخر فيخضع للجذب وليس لضغط الالزام وهو يعبر عن اوامر جديدة خلقتها حالة عاطفية انطلقت بعد ان احدث اوامرها الجديدة بالاوامر الاخرى التي تعبر عن المطالب الاساسية للحياة الاجتماعية فوهبتها شيئاً مما تتصف به من الالزام وهكذا تتحد الاخلاق الاولى والثانية لتؤلفا اخلاق واحدة ، فالثانية استمدت من الاولى شيئاً من صرامتها ، واكسبتها في مقابل ذلك معنى انسانياً اوسع من ذلك المعنى الاجتماعي الضيق .

الا ان قواعد الاخلاق الثانية لا تفعل فينا منعزلة عن بعضها كالاخلاق الاولى ، فهي لا تكاد تتخلص من التجريد وتكتسب قوة الفعل حتى تتبعها سائر القواعد الاخرى فتلتقي جميعاً في انفعال حار في الرجال الذين شعروا بهذا الانفعال كالانبياء والمصلحين فينساق الناس في تيارهم وينسجون على منوالهم ، فالضغط الاجتماعي كلما كان غير شخصي يكون اقرب الى القوى الطبيعية اما التطلع والجذب فتزداد قوتهما كلما كان الذي يوحي بهما هم الاشخاص، فالطبيعة بواسطة هؤلاء الافراد الممتازين تريد ان تدفع بالانسانية في الطريق الى الامام .

فأخلاق التطلع تتضمن الشعور بالتقدم والانفعال الذي يبعث على هذه الاخلاق انما هو الحماسة للمضي قدماً . وكلام المصلحين انما هو اعراب في تصوراته عن الانفعال الخاص الذي يضطرب في نفس تتفتح ؛ وما يشعرون به انما هو التحرر والانطلاق .

وهكذا (فان الطبيعة[1] حين اوجدت النوع الانساني اثناء التطور قد ارادته اجتماعياً كما ارادت مجتمعات النمل والنحل ، ولكن العقل كان موجوداً فكان لا بد ان يوكل صون الحياة الاجتماعية الى آلية شبه عاقلة : هي عاقلة من حيث ان كل جزء من اجزائها يمكن ان يعدل بالعقل ولكنها مع ذلك غريزية من حيث الانسان، ما دام انساناً لا يستطيع ان يرفض مجموع هذه الاجزاء ، ويطرح كل آلية محافظة ، وهكذا تحلت الغريزة عن مكانها موقتاً لمجموعة من العادات وكانت كل عادة من هذه العادات جائزة لا ضرورية وكان الامر الضروري الوحيد هو اتجاه مجموعها الى المحافظة على المجتمع ، وكانت هذه الضرورة تجر معها الغريزة . ان الشعور بضرورة المجموع ، هذه التي نشعر بها من خلال جواز الاشياء ، هو ما نسميه بمجموع الالزام الاخلاقي) .

ان بين الاخلاق الاولى والثانية ما بين السكون والحركة ، فالاولى ثابتة

(١) منبعا الاخلاق والدين . لبرغسون . تعريب سامي الدروبي وعبدالله عبد الدائم ص (٦٠) .

لا تتغير اما الثانية فهي انطلاق الى الامام وهي تحتوي الاولى الا انه لا يمكن لهذه ان تحتوي الثانية لان السكون لا يحتوي الحركة بينما الحركة تتضمنه .

وبين الحركة والسكون في الاخلاق هناك حالة الانتقال ، فالسكوني هو تحت العقل لانه شبه غريزي ارادته لنا الطبيعة ، اما الحركي فهو فوق العقل لان العبقرية الانسانية هي التي جاءت به ، فهو تطلع وحدس وانفعال ، فيمكنه ان ينحل الى افكار ، لذلك فهو يحتوي على عقلية ، اي انه اكثر من عقل ، وبين هذين الطرفين يوجد العقل نفسه .

فالاخلاق الاولى مجموعة من الاوامر التي تمليها مقتضيات اجتماعية وليست فردية ، اما الثانية فمجموعة من النداءات يقذفها في نفوسنا اشخاص يمثلون خير ما في الانسانية فالالزام الاول ضغط وهو تحت العقل واقل منه ، اما الثاني فهو نداء يفرضه الانفعال الذي هو اكثر من فكرة لانه فوق العقل .

وهاتان القوتان تنعكسان على مستوى متوسط هو مستوى العقل ، وتتحول الاوامر والنداءات الى حدود عقلية صرفة فتقيم الانسانية في مستوى فوق المجتمع الحيواني ودون مستوى مجتمع من الآلهة كل ما فيه وثبة مبدعة .

هنا وفي مثل هذه الحالة يمكن للحياة الاخلاقية ان تكون حياة عقلية صرفة الا اننا لا نستطيع ان نقول ان العقل المحض هو اصل الاخلاق واساسها ولو فعلنا ذلك لما استطعنا ان نعلل الضغط الذي يدفعنا للقيام بالواجب وذلك عندما نشعر باننا نقاوم الالزام فلا نرخي لانفسنا العنان اذ لو كان العقل هو الذي يتكلم وحده لما كانت هناك قوة تدفع الى تنفيذ الالزام ومقاومة الرغبات التي تريد ان تخالفه ، فالمنطق وحده لا يمكن ان تقوم عليه الاخلاق ، وكل ما يفعله العقل انه يتبنى احدى الغايات التي يسعى اليها الانسان في المجتمع فيجعلها مبدأ للاخلاق .

وبناة الاخلاق النظريون يستفيدون من تشابك الغايات الاخلاقية التي اوجدها المجتمع والتي وهبها الضغط والنداء ، السكون والحركة ، فيبنون على احداها الاخلاق ويتخذونها مبدأ ، ثم يستنتجون من ذلك انها الزامية بينما هم اخذوا من المجتمع كل ما لهذه الاخلاق من مادة وصورة وكل ما تنطوي عليه من الزام .

فالحقيقة ان الالزام ضروره لا تقبل الا بعد مناقشة فهو مصحوب بعقل وحرية ولو ان الانسانية لم تكن عاقلة لما كان للفرد اية قدرة على الاختيار الا ان العقل لا يعلل من الالزام الا ما فية تردد ، وهو يقتصر فقط على دعمه فلا يخلقه او يؤسسه .

فالانسان كائن حي ، والتطور قد تم في اتجاه الحياة الاجتماعية ، والاجتماع هو صورة كل فاعلية حية ، والالزام الاجتماعي موجود قبل البناء العقلي ، فالحياة اوجدت مجتمعات مغلقة كما انها اوجدت مجتمعات مؤلفة من كائنات عاقلة ، الا انه يبدوان ليس من الممكن ان يحدث انقلاب شامل فتتطور الحياة الانسانية حتى تغدو مجتمعاً واحداً ، رغم انه قد وجدت نفوس ممتازة لم تقف عند حدود المجتمع بل ارتفعت في وثبة حب الى الانسانية كلها ، فبثت هذه النفوس الحية في الناس بما اشاعته فيهم من الحماسة حتى جذبتهم اليها وادخلتهم في النطاق السامي الذي ارتفعت اليه .

وهكذا كان للالزام مصدران ، الضغط والجذب ، (حتى ان[2] هذه الثنائية نفسها تغيب في الوحدة لان ضغط المجتمع ووثبة الحب ما هما الا مظهران ، متتامان ، للحياة) وانه لمن الخطأ ان نفسر الضغط والتطلع تفسيراً نهائياً بالمجتمع والحياة الاجتماعية ، فالمجتمع لا يفسر بذاته ، ولو كان هو السلطة العليا ، لما استطاع الفرد الممتاز ان يبدل اخلاق المجتمع فالمجتمعات هي تجلي الحياة والحياة هي التي تدفع الافراد الممتازين لمساعدة المجتمع على السير الى الامام (وان كل[3] اخلاق ضغطاً كانت ام تطلعاً ، ذات طبيعة بيولوجية) .

هذه خلاصة كثيفة وعرض سريع لرأي برغسون في الاخلاق والالزام الاخلاقي كما يعرضه علينا في القسم الاول من كتابه منبعا الاخلاق والدين وهو تطبيق لفلسفته العامة ومذهبه الحيوي على الاخلاق وبرغسون لم ينج من النقد وعلى الاخص ما اتهم به من ثنائية ومن تفريقه التفريق المطلق بين العقل والغريزة . وقد آثرنا هنا جانب العرض فقط على جانب العرض والنقد لنفسح مجالا متسعا يظهر فيه رأي برغسون بشموله وقوته ، تاركين النقد الى الاعداد القادمة .

دمشق — جلال فاروق الشريف

---

٢ و٣ منبعا الاخلاق والدين ص (٩٣)(٩٧)

العرب ووحدتهم

بقلم أنطوان مارون

اذا اردنا الخوض في مثل هذه الابحاث وجب علينا ان ننشد من العقل والمنطق والواقع التاريخي دليلنا في طرق ابوابها والوصول الى حق نقره او ضلال ننكره ولذلك نتوخى ان يكون بحثنا موضوعياً مجرداً نزيهاً عن الاغراض النفعية بعيداً عن النزعات الشخصية .

فالكل يعترف ويقر بأن العرب في ماضيهم حملوا نبراس العلم والحرية قروناً طويلة يتيرون به السبل امام الناهلين ثم تأخر ركبهم عن قافلة الحضارة العالمية فأصبحوا يستقون الموارد بعدان صدر عن معينهم الكثيرون فما علة التوقف ؟ وما سبب التأخر ؟

يعود الامر في رأينا الى ان العرب غزوا البلاد وفتحوا الامصار وحكموا اكثر العالم في سبيل اداء فريضة دينية هي نشر الدين الاسلامي فكان هذا الدين معبراً عن امكانياتهم فتحولت قدرتهم الكامنة وانقلبت الى قدرة حركية تجلت في الحروب والانتصارات، واستولوا فيما استولوا على المخطوطات العلمية القديمة من اغريقية ورومانية وهندية واختلطوا بالاجانب وقبسوا عنهم كثيراً من علومهم فوضح ميلهم الى العلم والمطالعة وغدا رغبة ثم انقلب تعشقاً وهواية فكان منهم الفلاسفة وعلماء الطبيعة والرياضيات واخصها الفلك ثم ادخلوا العلم عن طريق الاندلس الى الغرب ولكنهم لم يقوموا في عملهم هذا فقط مقام همزة وصل تربط معارف امم بمدارك اخرى بل وسعوا وابدعوا واكتشفوا ما يتلاءم وضرورات عيشهم وليس في قولنا « قبس العرب عن القدماء علومهم » ضير على فضل العرب ، ألم ينقلب في ايديهم ناراً وهاجة يتلاشى عندها كل ظلام دامس ؟ فالعرب في انارتهم بسراج نصف متقد قنديلاً وضاء لا يخفى نوره على قاصدي العلم عبروا عن غيريتهم التي فطروا عليها ورضعوها مع ألبان امهاتهم وعن نبذهم لكل انانية واثرة ضيقة كرهوها وهم بعد احداث في التاريخ .

ثم تدخل العنصر الغريب فبدأ التفكك والانحلال وتفشى حب الذات في الاوساط العربية ، عن طريق المماليك والاتراك الذين عاثوا فساداً في مؤونة البيت العربي الواحد فاختل توازنه العام وانقسم البيت على بعضه وفي الانقسام ضعف ففقد وحدته وشل نشاطه الا النزر اليسير منه وتسربت روحهم الاتحادية المتضامنة بطريق الاندلس الى الغربيين فوحدوا صفوفهم وثاروا براكين هادرة فتغلبوا على اقطاعية العلم والمادة ونشأت الوحدات القومية فسموا طويلاً في مضمار العلم بينما وقف العرب ينظرون الى ما وراءهم محاولين الاحتفاظ بما خلفوه فتأخروا ، ومن يقف يتأخر .

فتأخر الركب العربي إنما يعود في المقام الاول الى تفسخ الوحدة الروحية فامحت الوان حضارتهم في اكثر نواحيها ، وكان ازدهارهم ابداً وقفاً على وحدتهم لذلك سنعرض الآن لبحث الوحدة العربية متبين ضرورتها وامكانها واستقرارها .

أما ضرورة الوحدة العربية فقائمة على أمور ثلاثة :

أولها : ان الحضارة العالمية انما تبنى على أساس العدل في التنافس المعنوي والعدل في التنافس المعنوي يقوم على أساس المساواة المادية فلبناء حضارة عالمية فضلى لزمت المساواة المادية قبل غيرها ولكنها ليست مساواة رياضية صحيحة مطلقة ولكنها تقريبية تداني بين الحالات المادية للامم والشعوب قاطبة . اذن فانضمام الاقطار العربية واتحادها لما يداني نوعاً ما من المساواة المادية العالمية اذا نسجت على هذا المنوال كل امة منقسمة مشتتة الكلمة .

وثانيها : أن الامة الواحدة نفسها اذا كانت متقطعة الاوصال مبتورة الاعضاء لا تحسن أداء مهمتها للمساهمة في الحضارة العالمية فلزام على العرب اذن ان يكونوا صفاً واحداً وكلمة واحدة لتأدية الوظيفة المنوطة بهم ، بحكم وجودهم ، على وجهها الامثل .

وثالثها : التسرب الاجنبي ، اذا كانت الامة واحدة تعذر على الاجانب النفوذ الى صفوفها والسعي لعرقلة سيرها والحد من نشاطها العملي ، والتدخل نفسه وليد عصبية سلبية تدني من قيمة الغير لترفع قيمة نفسها فيبدو العالم مديناً للامة المسيطرة على غيرها بأكبر قسط من حضارته فيخلدها على التاريخ فالتدخل اذن عمل

اناني وانما يعضد الانانية القوة انى وجدت وما يعدم أثر القوة الا القوة وفي الاتحاد قوة فالاتحاد اذن ضروري لأداء الرسالة على الوجه الاكمل دون تدخل الاجانب .

أما إمكانية الوحدة العربية فقائمة على مدى شعور العرب بقوميتهم اي على مدى وعيهم القومي وهل القومية سوى الصلة المادية التي تربط المرء بتاريخ أمته فتنشأ عنها رغبة السعي لمستقبل مشترك؟ وهل الوعي سوى ادراك الحاضر وارادة المستقبل . والعرب كانوا وما يزالون يجمعون عناصر الامة كلها من جراء حياتهم المشتركة على احقاب الزمن الطويلة فلهم اسم واحد ولغة واحدة ومصالح مشتركة واحدة ووطن طبيعي واحد وتاريخ واحد ووعي قومي واحد ومع العلم بان لكل امة في تاريخها مرحلة نشؤ ومرحلة تطور ومرحلة انحلال وبأن حالنا الحاضرة هي حال الانحلال يكون بامكاننا اعادة سير التاريخ بأن نقوي في انفسنا شعلة هذا الوعي القومي . ان الولاء القومي الذي به يدرك المرء حقيقته ويحس بحياته المشتركة مع ابناء امته ويشعر بارتباط ماضيه بماضيهم بما فيه من مفاخر ومخاز ويسعى واياهم سعياً لمستقبل واحد ، كفيل وحده مع شيء من الاقدام والثبات باحقاق حق العرب الطبيعي في أن يعيشوا موحدين . وقد جاء في محاضرة الاستاذ رينان الشهيرة التي القاها في جامعة السربون بتاريخ ١١ آذار سنة ١٨٨٢ تحت عنوان « ما هي الامة ؟ » قوله :

«الامة نفسية بل هي مبدأ روحي وما يحقق هذه النفسية وهذا المبدأ الروحي سوى شيئين هما في الحقيقة شيء واحد يكمن اولهما في الماضي ويتجلى الآخر في الحاضر . اما الشيء الاول فهو الاشتراك في الذكريات القديمة الغنية واما الآخر فهو الاقرار الحالي والرغبة الآتية في الحياة المشتركة وارادة تخليد الميراث القديم . يكمن في الماضي ميراث من المفاخر والمخازي يتشاطرها ابناء الامة فتتجلى عندهم في الحاضر خطة واحدة مشتركة ، وان تقاسم مواطنيك الالم والامل والفرح لخير الف مرة من رفع الحواجز الجمركية والحدود الاعتبارية التي اوجدتها الافكار الستراتيجية وان هذا الاشتراك في اللذة والالم لأهم من سواه بالاعتبار في تكوين عناصر الامة رغم اختلاف العرق واللغة .. قال : « ان تقاسم مواطنيك الالم ... » ! وهذا حق فما يوحد بين القلوب المتنافرة مثل المصيبة الواحدة لان الرزء والحداد في الذكريات القومية افضل من البشر والفرح فهي تفرض واجباً معيناً لتفاديها وتتطلب جهداً للامة موحداً مشتركاً . فالامة اذن وحدة متضامنة تنشأ من الشعور بالتضحيات التي بذلت ومن الاندفاع لبذل تضحيات جديدة » . فمن هذا القول نلاحظ ان الامة اكثر ما تعتمد في وحدتها على الشعور المشترك بوحدة التاريخ والتطلع الى مستقبل واحد اي ان الامة ليست سوى اشتراك في المشاعر والارادات او هي وجدان جماعي على حد تعبير علماء الاجتماع . وينشأ عن الاشتراك ادراك له ، وما هذا الادراك سوى الوعي القومي وان الاخير الا الشعور بالقومية ، فوحدتنا اذن وقف على شعورنا بقوميتنا ، ولكن الشعور القومي اذا تطرف وغلا بات عصبية سلبية جامحة واما القومية من حيث هي عصبية ايجابية فبناءة رشيدة ترى ازدهار الامة في حركتها ونشاطها هي لا في الحد من نشاط غيرها من الامم .

اما استقرار الوحدة العربية فيقوم على استجماع العرب لعناصر الامة الواحدة ، وانني الآن بسبيل درس ديمومة هذا الاستجماع : فالاسم باق على الزمن لان يطلق على قوم ساهموا فعلياً في بناء الحضارة العالمية ولو اعتبرنا كسراً مخرجه مجموع امكانيات العالم وصورته مجموع امكانيات الامة الواحدة في الماضي والحاضر والمستقبل رأينا الكسر العربي لا ينعدم قط وبقاؤه داعية لبقاء اسم العرب . اما اللغة العربية فباقية لروحيتها وحيويتها واما التاريخ فباق لا تبليه يد الزمن لما فيه من مآثر واعمال عظيمة . واما الوطن فوقف على بقاء العرب اكثرية في بلادهم لان الوطن بالتعريف هو الارض التي تسكنها امة من الامم بأكثرية حقباً طويلة من الزمن ، ففي الوطن عنصرا الزمن والاكثرية والزمن شرط متوفر واما الاكثرية فمتوفرة حالياً والحفاظ عليها فيما بعد منوط بالعرب انفسهم واخلاصهم لأمتهم وما عرف عن العرب الا الاخلاص والوفاء والشجاعة نتيجة لتغلب الافعال الارادية عليهم والاخلاص فعل ارادي فالاكثرية اذن مضمونة نتيجة الاخلاص ، والوطن مضمون نتيجة الزمن والاكثرية . والمصالح المشتركة مكفولة بنتيجة الحياة المشتركة . ويضاف الى هذه العناصر عنصر آخر متوفر عند العرب وهو الدين وان تعددت اسماؤه فوحدته قائمة في انه عبق الروح السامية .

هذا ما نرى في حال العرب الحاضرة وسبيل انتشالهم فنحن بحاجة الى سياسة انشائية بنائية وتوجيه صحيح وتقسيم للعمل على اساس المقدرة والتخصص فيشعر الشعب اولاً بحاجته الى بعضه حاجة الجسم الى كل عضو من اعضائه وتساهم الامة ثانياً في الحضارة العالمية بما منحتها اياه الطبيعة من كفاءات تختلف عن كفاءات امة اخرى مما يزيد جمال العالم وكماله كطاقة زهر جمالها في تنوع ازهارها .

دمشق — انطون مارديه

حفنة تراب

بقلم الانسة نجوى عارف قعوار



التقطتها من الارض، وفجأة اذا بذراتها تلألأت كالدموع، وخرجت انفاس حارة منها، وسمعتها تقول: «انا فتاة. فتاة جميلة في السادسة عشرة من العمر .

اريد ان اعود الى الحياة ، اريد خطيبي الذي كنت احبه .

وثيابي التي اعددتها ، وامي التي كنت وحيدتها.

اريد ان اعود الى البيت الصغير الواقع على شاطىء النهر.

حيث كنت وصديقاتي نلعب ونسبح ونقطف عن اشجار الشاطىء الزهر والثمر»

***

وقلبت حفنة التراب، وسمعت في هذه المرة مواء .

انا قطة ! قطة لي فراء ناعم .

عشت عند عجوز رفيقة احبتني ، وكثيراً ما سقتني الحليب بيديها، واجلستني بجانب المدفأة .

اريد ان اعود الى سيدتي العجوز ، هناك عند المدفأة، حيث احسست بالطمأنينة، وكانت عواصف الثلوج تجتاح الحقول والغابات في الخارج .

***

وقلبت حفنة التراب بيدي، وفاحت في هذه المرة رائحة عطرية جميلة .

وسمعت صوتاً حالماً في هذه المرة .

انا زنبقة ! زنبقة بيضاء جميلة.

عشت في روضة القصر ، وتعهدتني بالري والعناية صبية كالفجر .

اريد ان اعود الى الحياة، وانطلق في الهواء.. واتمتع بالشذى الذي انبثق مني ، والحسن الذي تمثل بي .

واريد تلك السعادة التي غمرتني عندما كنت بين جيراني من الفل والياسمين .

***

وسمعت صوتاً مقاطعاً .

انا شاب كنت اتدفق نشاطاً وفتوة، اريد ان اعود الى الحياة .

بل الى ذلك العهد من حياتي ، حين كانت لي فتاة كالزهرة الغضة .

ثم رحلت عن الحياة، وهي في السادسة عشرة من العمر ، وهي كارهة رحيلها .

رحلت عن البيت الصغير الواقع على شاطىء النهر حيث كانت كثيراً ما تلعب وتقطف الزهر والثمر .

***

ونظرت الى حفنة التراب فبدت لي شعراً ابيض ، ووجها مجعداً .

وسمعت صوتاً نحيلاً .

انا عجوز ، ولكني بالرغم من هذا اريد العودة .

فالحياة جميلة حتى في الشيخوخة وقد احببت الطمأنينة التي اكتنفت حياتي في الكوخ الصغير .

كوخي الذي كان بسيطاً وهادئاً ، ومحتوياته عزيزة علي .

فانا لا ازال اذكر قطتي ذات الفراء الناعم .

واذكر تلك الغمرة من الهدوء التي كانت تسري الى قلبي اذا ما اجلستها الى جانبي . وكانت الريح في الخارج عاتية والمطر شديداً .

ولكني وقطتي كنا بمأمن من هذا، بقرب المدفأة ذات النار المتوهجة .

***

وبسرعة استحال الشعر الابيض الى شعر اشقر مجعد، وظهر امامي وجه اميرة بهيجة الطلعة وأنت الاميرة وقالت .

كيف السبيل الى الحياة ثانية ، فانا لا أزال اذكر منظري الجميل امام المرآة .

واذكر ثيابي الثمينة وانا ارفل فيها في ردهات قصرنا الجميل .

واذكر الحديقة التي كنت اتعهدها بنفسي. اذكر فلها ووردها وياسمينها، ولن انسى زنابقها الفارعة البيضاء .

حين كنت ألتقي بذلك الذي كان ينتظرني في الحديقة الجميلة ، عندما تهدأ الاصوات ،

ويأوي الناس الى مضاجعهم، وابقى واياه في حراسة القمر، بين الزهر والشجر.

***

وحدقت في حفنة التراب، وسرت في رعشة الخوف .

ايتها الحفنة السوداء من التراب الحقير!

كم من مرة سخرتك جرثومة الحياة لتكوني آنية لهؤلاء ولغيرهم .

وكم من مرة صاغتك القوة المسيطرة الرشيدة، لتكوني هياكل لفكر الانسان، ولشذى الزهر، ولغرائز الحيوان ثم تناثرت تراباً ملقى على الارض .

حفنة تراب . باردة سوداء .

هل تكمن فيها ارادة الحياة ام هي وعاء لها ؟؟

ان من حل هذه المعضلة، فقد انتهى الى السر العظيم .

وادرك الى اين ينتهي المطاف .

ولكن أيستجدي الانسان الجواب من حفنة التراب ؟؟

أينظر الى الاسفل ، وهو الذي قضى الحياة ينظر الى النجوم .

ثم او ليس هذا اعترافـاً بأن الهدم اعظم من البنـاء ، والانحلال اسمى من التركيب .

ولكن أليس من المعقول ان يكون السر هو في نوع التركيب وشكله .

وان اللغز العظيم .. اي سر الحياة ناتج عن هذا التركيب الدائم التغير .

ولكن ماذا يهم كل هذا ... بينما هؤلاء جميعاً يصرخون بانهم يريدون العودة .

اني اسمع اصواتهم ، واتخيل اشكالهم مشرقة جميلة .

لقد انتهى . دورهم ، وانقضت قوة الحياة فيهم .

الى اين ذهبت ؟ وهل من المعقول ان تعود ؟ .

يا حفنة التراب : كل ما اعرفه لأقوله انك بحاجة الى البناء العظيم ، .

الى نفخة من الخالق ، وعندها تصبحين حياة جديدة .

ويحيا فيك ثانية هذا الذي يرغبه هؤلاء الذين كنت اوعاء لهم او جزءاً منهم .

اما انا فمصيري كمصيرهم .

أتراني انا الاخرى اصرخ واستغيث عندما اصبح طيناً بارداً .

فلي مثل هؤلاء آمال وامان . أين ستتوجه ؟ والى اين ستنتهي ؟؟

مـالك لا تجيبين ؟ أأنت الاخرى تخفين السر الدفين ؟ .

ولكن من انت حتى استطلع منك الخبر اليقين ؟

ما انت الا حفنة تراب . وكحفنة تراب سأنظر اليك ، ثم القيك تحت قدمي لتكوني موطئاً للآخرين .

ويحك !! لا تنظري في وجهي شامتة ، كمن يقول لي : اني انا الاخرى سالقى الجزاء . هذا الجزاء الذي حكمت به عليك . فانا لا اخاف من مثل هذا العقاب ، لان في الانسان ايمـاناً . موحى به ، بانه اكثر من حفنة تراب .

الناصرة ــ فلسطين   نجوى قعوار

حلم

الى الاستاذ عمر ابو ريشة رمز اعجاب وتقدير

✭

ايقنت اذ حمل الوادي صدى قبلي ... ان ليس ثمة الا مبصر فـانا

قد روعت زهرة تندى وسنبلة ... على الغدير وقد ابصرن ألقيـانا

ماذا ترى !. لهب رفت به مهج ... حرى تذوب به روحاً وريحـانا

قالت لجارتها ورقاء روعهـا ... في الدوح اذ همست في الليل نجوانا

وادرك الليل سر الحب في قبلي ... فظل يهرع خلف الصبح نشوانا

روحـان في لهب الاشواق ذوبتا ... يظلنـا الليل في الوادي ويرعانا

قالت براعمهـا لمـا شكوت لها ... طوباك ما شئت بي رشفاً وادمانا

ترجرجت ملء كفي ثم داعبهـا ... فمي وصورهـا في الحب الوانا

حمراء من فرط ما تقسو بها قبلي ... زرقاء من فرط مـا نشتد طغيانا

اف الدجى بسمينا فارتوت شفتي ... ورف في زورق الاحلام قلبانا

جئت لدينا الربى كرماً ومعصرة ... وارتد جدولنـا عطرا ورمـانا

قالت وفي شفتي بقيـا قالتهـا ... اما ترى سكرت بالحب نفسانا

هل قد رأت مثلنا الدنيا وبهجتها ... صبـان قد جملا دنياهما حانا

فقلت والشفة السمراء في شفتي ... يا هل ترى ثم ما ندعوه دنيانا ؟

اعـالم آخر نحيـا ببهجته ؟ ... ام هل سوانا ترى في الارض انسانا ؟

اقسمت ان ليس لي دنيا ولا وطن ... وليس إلاك لي دنيـا وكاسـانا

***

سمراء هل لاذ بالوادي فتى دنف ... يضم لؤلؤة سكرى ومرجـانا

نامت على يده لمـا تعهدهـا ... بوابل يتحدى الثغر ادمانا

البحرين   ناصر بن سليمان ابو حميد

مشكلة الشباب

بقلم الدكتور محمد يحيى الهاشمي

☆

اجمل ايام* السنة الربيع ، واجمل ايام الحياة الشباب ، ينبئ الاول عن ازدهار الاشجار ، والثاني عن ازدهار ما نسميه بتاج الخليقة في العالم الارضي الا وهو الانسان ، في كليهما النضارة والفتوة والمرحلة الاولى للثمر ، فلا ثمر بلا زهر مشع ، ولا نضوج بالمواهب العقلية وتكامل في القوى البشرية دون ان تتقدم ثورة الشباب وغليانه . من من الناس لا يذكر ايام شبابه الا بالشوق الزائد ، عندما يشتعل الرأس شيباً ، ويدب الهرم ، وتذوي القوى وتذبل النضارة وتدني آلام الشيخوخة ، ذلك العاجز عن احتمال عبء الحياة من القهر رويداً رويداً .

في الشباب ثورة وغضب ، وغليان واضطراب ، وحلم لذيذ ، وآمال واسعة ، واعتقاد قوي في خير البشرية ، ونزعة شديدة الى المثل العليا ، واندفاع الى ما تصبو اليه النفس ، وسرعة في الابرام ، وطيش في العمل ، وتهجم على الاوضاع المعهودة ، ونزق في الحياة ، ووطنية مشتعلة ، وحماس قوي للحكام ، وشهوات متقدة ، وجري وراء الملذات ، واخلاص الى درجة الغلو والتفاني ، وميل مع الريح كيف مال . فيه انكار النفس الى درجة التضحية ، وانانية شديدة تسمح بمحو كل شيء في سبيل الذات ، فكأنه مجموع متناقضات قلبه المشتعل بركان يثور ، يريد ان يهدم كل ما وجد ليبني على تلك الانقاض بناء شامخاً جديداً ، ولكن قصوره التي يشيدها في الهواء ، لا يدري لها اساساً ومخططاً ، ولا تصميماً وتدرجاً بالبناء . الفعالية القوية رائده ، والعمل قائده ، دون التفكير في مصدر الشيء ونتيجته .

ادرك زعماء الامم مفعول هذه القوى المحركة ، فاستفادوا منها الاستفادة اللازمة ، فمنهم من وجهها للخير فأتت بثمار طيبة ، عاد نفعها لجميع افراد الامة ، ومنهم من وجهها للشر فزادت شقاء الامة واسرعت في انحطاطها وتدهورها .

على كاهل الشباب بنينا استقلالنا ، ومن دمائهم الطيبة روينا ارض الوطن المفدى ، وعلى جماجمهم رفعنا بناء المجد شامخاً ، وكان الشباب خير من ذاد عن حوضه بسلاحه . اما اليوم فبعد ان زال حكم الاجنبيين عن البلاد ، لم يبق للشباب من فعالية انبعاث القوى الخلاقة المبدعة ، وغرس بذور الاصلاح ورفع مستوى الامة مادياً ومعنوياً ، ولكن اذا لم يكن التروي رائدنا في اعمالنا يصبح ضرر العمل اكثر من نفع ، وقديماً قال الشاعر المتنبي :

الرأي قبل شجاعة الشجعان	هو اول وهي المحل الثاني
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة	بلغت من العلياء كل مكان

مضى على الامة العربية حين من الدهر ، كان المبدأ السلبي رائدها في جميع اعمالها الوطنية ، لانه كان يسود بين الحاكم والمحكوم مبدأ عدم الثقة ، حتى لو كان الحاكم من ابناء البلاد ، لانه كان يتهم بصورة مباشرة او غير مباشرة بتعاونه مع الاجنبي ، ولم يكن في ايدي ابناء الوطن قوى يجابهون بها من يناوئهم ، اما اليوم فقد تغير الوضع ، واصبح الذين يجلسون على اريكة الحكم منا والينا والمسؤولية لا تتحملها فئة واحدة ، بل هي موزعة على الجميع ، ويصدق فينا ما جاء في الاثر : « كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته » .

نعم قد تغير الوضع ، ولكن على ما يظهر لم تتغير النتائج

* حديث اذيع من محطة دمشق .

الموروثة عن العهود السابقة ، جرياً على قاعدة الاستمرار بالعمل الى حين . واذا تمادينا بالمبدأ السابي الذي ينتهي بنزع الثقة من القلوب زال الرباط المحكم الذي يؤلف بين قلوبنا ، وصرنا كالمثل المضروب في القرآن الكريم : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » . نحن بحاجة شديدة الى رجال المستقبل الذين يدركون عظم التبعة الملقاة على عواتقهم ، والامانة التي اؤتمنوا عليها ، تلك الامانة التي عرضت على السماوات والارض والجبال فأبين ان يحملنها ، وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً . اننا بحاجة الى رجال يبدلون بالاوضاع الموجودة اوضاعاً خيراً منها ، ولكن لا في الضوضاء والضجيج بل بالعمل المثمر والتروي في البناء ، لا في الهدم ، فمعول الهدم ما تسلط على امة الا جعل ديارها بلاقع ، وبدل عمرانها خراباً ، فاصبحت قاعاً صفصفاً ، صحراء قاحلة ، عند ذلك تكون الطامة الكبرى والبلية العظمى ، اذا كان الصدق دليلنا وقارنا بين انتاجنا وانتاج الغرب ، نجد البون شاسعاً ، ولا يمكننا تلافي هذا النقص باعمال ترتكز على الفوضى ، وفي السخرية من رجالنا مهما كان شأنهم ، بل بالتعاون والعمل المستمر ، فالظن يفضي الى التخاذل والتناحر به لا التعاون والتعاضد ، والتخاذل ما استولى على امة الا دك كيانها وقوض بنيانها .

نريد من الشباب ان يتطلعوا الى مستقبل خير من هذا الحاضر ، جرياً على قاعدة الرقي الذي يتطلب — كما بين الجاحظ — « ان يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا ، على انا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا ، كما ان من بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدنا » .

اجابة لدواعي الرقي نرى كثيراً من الشباب يولون وجوههم شطر الغرب ، للاغتراف من معين علومه ، فهم اما ان ينخدعوا بمظاهر المدنية الاوروبية فلا ينظرون الى المحيط الذي جاءوا منه الا بشيء من اليأس والاشمئزاز والازدراء احياناً ، او ان تؤثر فيهم نواقص الحياة الاوروبية وعيوبها التي تقع عليها العين هناك ، فتمتلئ نفوسهم نفوراً وثورة على كل ما في اوروبا من اشياء صالحة مفيدة . اويظن ان النظام السائد في البلد الذي يدرس فيه افضل من النظام السائد في البلد العربي الذي جاء منه ، وهو افضل نظام يمكن ان يتبع بل هو النظام الصالح الوحيد الذي ينبغي ان يطبق بحذافيره ، والذي نخشاه في هذا الصدد ، هو فوضى الانظمة والبلبلة والاباحية في الاخلاق تحت ستار نسبية المقاييس .

ان الطريقة المثلى في نظر اهل الحجى ان نؤلف بين ذاتيتنا ونهضة الغرب الحاضرة ، لان اتباع منهج لا يمت الى روحيتنا بصلة ، سوف يخنق قابليتنا الشخصية ، ولا يعوض ما اتلف بشيء ذي حياة من اجل ذلك يلزم ان تكون بعثاتنا الى الغرب مراقبة وموجهة توجيهاً صحيحاً ، على ان لا نهمل امر الكليات في الوطن لان بجانب الرسالة العلمية التي تحملها رسالة قومية . واهم واجب من واجباتنا ان نزيل اليأس من قلوب الشباب ، فنطرد صور القنوط القاتمة التي ارتسمت في مخيلتهم ، ونبدد الآفاق المظلمة من اجل المستقبل التي تكونت في سماء تفكيرهم ، موجهيه الى اعمال مثمرة على ان نكون ابعد الناس عن جشع المادة والتكالب على حطام الدنيا . وفي اعتقادي اذا تمادى قسم من الشباب في عناده وتمرده وعصيانه لمن هو اكبر منه سناً ، واكثر دراية ، وضرب عرض الحائط بخبرة من تقدمه ، ولا ذنب له في ذلك الا انه من امته وليس بغريب عنه ، كذلك اذا تسرب الى صفوفهم حب الاثرة وغزت الانانية والفوضى نفوسهم ، وفتحوا قلوبهم للفتن والاضطرابات كان املنا بالنجاح قليلاً ، عندئذ ينطبق في حقنا ما قال عيسى لحواريه : « انتم ملح الارض ، ولكن اذا فسد الملح فبماذا يملح ، » الشباب هو الامل ، فان ضاع الامل فما العمل :

اما اذا فهم الشباب رسالته حق الفهم ، ولمس الاخلاص والصدق في الذين تقدموه سناً وخبرة ، فاهتدى هذا العنصر الفتي بتدريب اهل الدراية الى مواطن الخير والفلاح ، فانضم الى اندفاع الشباب نضوج الشيوخ وحنكتهم ، ادركنا الغاية المنشودة .

البلاد بحاجة الى خبراء فنيين في الهندسة والكيمياء والكهرباء والميكانيك وجميع فروع العلوم والصناعات الحديثة ، وهذا التخصص والتعمق في البحث لا يأتي صدفة ، ولا عن طريق المناورات السياسية والاضطرابات الحزبية ، بل عن طريق العمل الهادىء المتواصل الرزين والجد المتتابع ، وعمل تصاميم فيها كل المنفعة للبلاد ونهضتها الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية ، اذا وعينا ذلك شيباً وشباناً ، وتعاونا متكاتفين متعاضدين لازالة نواقصنا ، وازلنا كل الاسباب الداعية لتمزقنا ، كان لنا امل في ان نتطلع الى افق اوسع من افقنا والى مستقبل خير من الحاضر الذي نعيش فيه . والا فنحن لن نزال واقفين في مكاننا او اننا نمشي الى الوراء ، بينما الامم المتمدنة تجري بسرعة البرق الى الامام .

حلب — محمد يحيى الهاشمي

صديقان ...

بقلم بيير مينيه

☆

غداً ... سأكرهه، سأكره قسماته، ولن اكون في انتظاره، فانا لا اريد كفله وحضانته، فلقد سبب لي كثيراً من الالم. اظنه سيتخيل اني سأزين الدار ازهاراً، اني سأذوب دموعاً، ولكن لن يكون هناك ورود ولا دموع ... بل لن افوه بكلمة .

خمس سنوات انصرمت! لو امضيتها مع «انيس» لما كنت تألمت بهذا المقدار، ولو قتلتها لما كنت هنا، وبالتالي كنت تحملت كل شيء، كما تحمل هو، تماماً. كم احسده! كم ارغب ان اكون مكانه! انطلق من السجن ... الحر والى الابد من الماضي لا أحمل مسؤوليات تجاه الآخرين .. واملك القدرة على اعادة كل شيء، اعادة الحياة من جديد، كطفل يحيا حياته .

يقيني انه لن يتغير، بسمته نفسها، نظرته الوادعة التي لا تحتمل، سمة الاخ الكبير التي يحملها دائماً: (انك مجنون يا صغيري جان! ماذا؟ تعبث بحياتك من اجلها؟ دع عنك سأرتب الامر بنفسي.) منذ سنوات خمس وهذه الكلمات تعصف في رأسي ..

غداً سيكون هنا .. ولن اقدم له سوى كرهي، فهذا خير ما بامكاني تقديمه له .

ولم تكن طيبته سوى نوع من الخيلاء. اذ كان من اشد الناس كبرياء واعتزازاً بنفسه، يجمع العادات الحسنة كما يهوى الناس جمع الأوسمة وهو دائماً على اهبة لأجباري واخضاعي. اما نبالته فهي تحشر انفها في كل شيء، يقف ابداً لآلامي ومصائبي بالمرصاد ليلعب دور الممرض يضمد كلومي وجراحي، وكان يقيدني بادراكه الواسع للأمور، اذ يبدو دائماً اكثر تفكيراً واعمق بصيرة مني. اما شهرتي ونجاحي فانا ادين بهما لتلك المقالة التي كرسها لتقريظ كتابي الاول .

انه يقدرني ولكن في تقديره نوعاً من الحماية مقيتاً، وان خضوعه وخشوعه تجاهي ليعادل الخزي والعار ...

ولقد اعتدت على تسييره لمشاكلي الى حد انه في المدة الأخيرة لما اراد الوقوف بيني وبين انيس، وعندما حاول ان يسلخني عنها عادت الي الثقة به وظننت ان باستطاعته وحده ان يبعد عني اشد الامور سوءاً. ورغم انه من المستحيل على اي شخص ان يكون نداً وصنواً لانيس، فقد استطاع هو ان يفهما بسرعة، وان يدرك بان الحقد قد بلغ بنا مرحلة كان لا بد لأحد منا ان يقتل الآخر، وهذا تماماً ما حصل ولكنه قتلها عوضاً عني ...

هل كنت جباناً آنئذ؟ اني لأسترجع الى مخيلتي تلك اللحظات كانت انيس على وشك القدوم اذ اعلمتني بزيارتها هاتفياً، وفي كل صباح اتصلت بي فيه، كانت تزورني على اثره بعد الظهر لتقوم دائماً بمشاداتها اليومية. وبالامس فقط اندفعت نحو مخطوطات قصتي الجديدة، وهي ترغي وتزبد، ولم تكن اظافر تلك التي اشهرتها بل هي مخالب قاسية، وكدت اخنقها وانا احاول نشل مخطوطي من يدها ولا يزال يدوي في اذني عويلها: «آه.. انك لم تعد تحبني! اتخال الامر سينتهي بهذه السهولة؟» وكان النضال بيننا عنيفاً مجهداً، وتركتني اخيراً وهي تقذف تهديدات مرعبة .

انها ستعود اذاً: «هذه المرة — كتبت



ترجمة حكمت نابلسي

لي – يلزمني تفسيرات واضحة ونهائية !» .

وكنت اقوم بفحص غدارتي عندمـا قدم لزيارتي : « انك مجنون يا صغيري جان ! ماذا ؟ تعبث بحياتك من اجلها ؟ دع عنك سأرتب الأمر بنفسي » واخذ مني الغدارة فوضعها في جيبه « هيا اذهب ! اخرج يا صغيري . . . »

وقالكت نفسي ، فلم يكن باستطاعتي الاتيان بعمل ، ومد لي بقبعتي وبمعطفي وعند الباب التفت اليه : كان غائصاً في المقعد وقد ثبت نظره على الارض ، ففهمت وخمنت كل شيء . ومـع ذلك انطلقت خارجاً . . .

وترددت طويلاً في الأوبة الى البيت وتناولت طعـامي –خلاف عـادتي – في غير مطعمي المألوف ، خشية ان يلحظوا اضطرابي وقلقي ، وهناك لم استطع ان ازدرد كل غذائي ، فشربت كثيراً ، وخرجت من المطعم اتسكع في الطرقـات ، وولجت حانة تعزف فيها فرقة موسيقية انغاماً غجرية وهناك ايضاً اترعت الكأس فشربت ثلاثاً واربعاً . . . حتى شعرت انني بت في حالة سكر شديد . . .

عدت الى البيت تدفعني الفكرة : بأن الشرطة قد تجـد في تأخري غير الاعتيادي معنى غريباً . . واستأجرت سيارة وهنالك امام باب منزلي تسمر رجل الشرطة .

وهكذا قتلها دونما اي تفسير ، ولم تمر بعد خمس دقائق على دخولهـا وسماع صوت الطلقة . . . وهوت الى الارض ككلبة حقيرة . . . وبدت القضية جلية واضحة ، امام اعين الشرطة ، واخطر المفتش بالهاتف . واخذ القاتل يسرد مأساته بهدوء ، وبعد ساعة كان قد اقتيد الى السجن ، اما الجثة فقد نقلت الى معرض الجثث ، وسمح لي بالرقاد في منزلي .

وبالحال بدأت التفتيش ، كنت اعرفه جيداً لأتأكد بأنه لا بد قد ترك لي اثراً اهتدي به ، واسير على هداه ، وفتشت منضدة اعمالي وبعثرت كل الاوراق عليها ، ثم سحبت من المكتبة نسخة من كتاب دير بارم ، الذي سبق ان اخذته منه ، وهو يعلم باني احتفظ فيه برسالته التي يقرظ فيها كتابي هذا وعلى الغلاف المصفر قرأت هذه الكلمات التي خطت بسرعة : «قل كل ما تريده ! ولكن لا تتكلم عن الغدارة ، وعن نيتك بالتخلص من انييس لا تقلق ، فكر في عملك فقط . . ها هي ! انها تقرع الجرس .! . الوداع !» .

وكان استنطاقي عـادياً جداً ، ولاحظت انهم يتظاهرون بالانصات الي بدافع الادب فقط ، فأقوالي لا تثير اهتمامهم ، اذ ليس عندي من جديد اروي به ظمأ فضولهم . فقد اقر لويس بأنه يتحمل تبعات عمله . وطلبوا مني ان اسرد عليهم نوع علاقتي مع انييس ، فاخبرتهم كيف تألمت معهـا وكيف كانت تفتن في تعذيبي . . وغيرتها المتوحشة ، التي غالت فيها حتى تضمنت كل اعمالي ، فلم تدع لي دقيقة للراحة . « ما تعتقد انه سيحدث لو لم يقتلها ؟ » وقمت بحركة كبيرة فالحقيقة اني لا اعلم ، وصرحت فقط بأنني لا اتأسف لما حصل ، وعندما تركتهم لأنصرف خيل الي اني اقرأ على محياهم علائم الاحتقار ، وعلمت بعدئذ ان المجرم استطاع ان يبهرهم وان يحوز على اعجابهم ، وانه بامكانهم والحالة هذه ان يقيسوني به .

زرت لويس مرات عديدة في سجنه ، وكان يلوح دائماً هادئاً ، مستخبراً عن قصتي بتلك اللهجة الابوية التي عرفتها فيه ، طالباً مني ان لا انزعج من اجله ، آخذاً علي الايمان بان لا افوه بكلمة رغم كل التطورات التي قد تأخذها القضية . ورغم تقديري له لم استطع ان امنع نفسي عن التفكير بانه ليس الوحيد – بيننا نحن الاثنين – الذي يستحق الرثاء والشفقة .

وكنت اجد هدوءه مرعباً ، اما انا فلم يغمض لي جفن ، ولم تكن ذكرى انييس هي التي تؤرقني وانمـا تفكيري الدائم فيه ، فلم اعد اكتب ، وكان اكثر ما يخيفني ترديدي الدائم بان اعترافاتي لن تغير شيئاً من مجرى القضية وكذلك بقاؤها مكتومة في صدري لن يبدل واقع الامر ، ثم لو بحت بها ! ترى من يصدقني ؟ واي اشمئزاز ونفور اجماعي سيثير ما سيدعونه جبني ! .

لقد تصرف بي حسب رغائبه دون ان يقدرني حق التقدير ، ودون ان يخشى حتى معارضتي له ، متناولاً مني الكاتب ، مهملاً في الرجل . واخذ كرهي يقف على قدميه شيئاً فشيئاً . . .

وكانت تشاطرني طوال المحاكمة رغبتان : الصراخ بأعلى صوتي جاهراً بالحقيقة ، ورؤيته يحاكم ويعاقب . وترك المحامي له مجال الكلام الدائم ، وكانت القاعة غاصة بالمتفرجين ، واخذت اصابع الحاضرين تشير الي عندما ظهرت في الجلسة الاولى ، ولكن ما اتى الغد حتى كان الاهتمام منصباً عليه فقط ! اي جبروت ابدى وبالمقابل اي وهن اظهرت . . . أهذا يا ترى ما كان يدور بخلده هو الآخر . . ؟ فهـو يتصور في العبقرية ولكنه في الوقت نفسه يتخيلني : واهن الارادة ، ضعيف المقدرة ، مستعبداً من انييس ، غير قادر رغم الجحيم الذي كنت اصطليه معها على الانفكاك منها . وكانت هذه المعرفة العميقة لأهوائي ، وتلك المقدرة المسيطرة

التي يشرح بها هذه الاهواء، تفعم قلبي حقداً لا يمكن التغلب عليه.

لم يكن ليأسف على فعله، فليعاقبه المجتمع ولكنه قد قام بواجبه. فالفن - حسب رأيه - يبرر عمل كل شيء، وليسحق كل ما يعيق طريقه دونما شفقة. وكان الحضور ينصتون لرأيه في سكون كنسي، واستطاع ان يملك افئدة المحلفين، كما تمكن ان يحمل اكثر من السابق سمة البطل، واستطاعت شخصيته ان تأسرهم وتأخذ بألبابهم واثار ظهوري امـام المنصة في الحاضرين نوعاً متعطشاً من الفضول، ولكن رغماً عني خيبت ظنهم، فقد كان الأهم عندي ان امنع نفسي من الالتفـات نحوه، واقناعه بأنني سألبث هادئاً متمالكاً لأعصابي، فلم اكن اريده ان يلاحظ شقائي.

وعدل عن ذلك فقد باح بكل شيء. ولم يترك لي ما ازيد عليه.

وعندما سألني النائب العام عن رأيي في الجريمة ابديت كالمرة الفائتة حركة غامضة مبهمة وصمت. «بأي حق يتداخل في امورك الخاصة؟ هل انت غير قادر على تحمل مسؤوليات عملك؟» وتسلطت علي الاعين، وعاودني الصداع هذه المرة بصورة لا تطـاق، واجبته بحشرجة «ليس هناك من جديد ادلي به».

وعدت الى صمتي وارتفع في جوانب القاعة لغط ناقم، كنت اعرف جيداً ان مسلكي هذا سيفتح مجالاً جديداً للمناقشة بالنسبة للمتهم، اذ بدا للأعين ان لدي من الاسباب والدواعي ما يمنعني من ان اخف لمساعدته، ولكني في الحقيقة كنت خائر القوى، وانثنيت لأستريح تحت اعين الجمهور الناقمة الحانقة.

وطلب المدعي العام الحكم بالاشغال الشاقة، فهو يرى ان هذه التضحية - التي شهر بهـا لويس - انما تخفي في طياتها روح الممثل، حاجة مرضية للشهرة، وكان لويس قد استطاع الايحاء للحاضرين بأنه لو لم يقض على انييس لكانت قتلتني. ولكن تصرفي امام المنصة كان يشجب الجريمة بوضوح. اما نظرية المجرم عن الفن فما هي الا محض هذيان عظمة لا يمكن ان يعتد به، وان الدافع الحقيقي للجريمة ما هو الا الزهو، هـذا النوع الاعمى، الاهوج، المخبول...

وحثثت الخطى نحو الشبكة، دون ان اعرف الدافع لذلك، وتناول لويس يدي وهو يبتسم وهمس في اذني «لقد كنت موفقاً يا صغيري جان، ستنقضي هذه السنوات الخمس سريعاً» واخذت الغصة بخناقي فلم استطع النطق بكلمة، ولعله قد ظن - وقد ساقه السجان - ان الانفعال هو الذي حبس الكلمات في حلقي، ولكنه مخطئ. فقد كان الحقد وحده هو المانع. واحسبه قد ظنني دنيئاً لحد اني قدرت مصيري ونكثت بعهده متعمداً، او ظن ان رائدي في هذا هو صمتي... لقد طفح نبله هذا حتى اصابني رذاذه واثار في نفسي نوعاً من الغثيان. وايقنت هذا المساء ان حياتي لن تتعدى ان تكون كابوساً مزعجاً...

لم اسطر كلمة طوال هذه السنين الخمس، حتى تساءل زملائي بخبث عما اذا كنت المؤلف الحقيقي لكتبي السابقة. وثارت حول صداقتي مع لويس اردأ الاقاويل واسوؤها، ولم يعد بامكاني انى توجهت الا ان الحظ الفضول الكريه يشع فجأة في جميع الانظار الموجهة الي!...

وكأنهم يلهجون بالسؤال نفسه عن عملي، ويحددون دهشتهم تجاه املاق انتـاجي الحالي، ولم تعد قصتي التي كنت بدأت بكتابتها تثير في نفسي اي اهتمام... وكثيراً ما كانت تنتابني رغبة في ان اكتب وابوح بالحقيقة وانادي بالاذى الذي الحقه بي. ولكن من ذا سيصدقني. بل من هو الذي لن يستنكر عملي كل شيء. كان يقاومني، وكان ما يسخطني ويغيظني هو ان استجدي منه الصفح او ان اشعر بأنني مذنب تجاهه... وكثيراً مـا اجتزت ازمات نفسية اشعر اثرها بانحطاط فكري، اعد لويس مسؤولا عنها، وانه تآمر على انهياري المعنوي؟ ولم يحل محلي الاوهدفه الوحيد معي ولا الأبد عـن التأليف مدفوعاً بغيرته من مؤهلاتي الادبية. وكان ما يسبب لي اشد العذاب هو تصوره هادئاً ساكناً في زنزانته رغم التجارب التي يعانيها، بينما اتخبط الآن مع صورته وذكراه. احسبه يتصور انني اكافح كي اصبح اهلاً له واكدس الصحائف في هذا السبيل وان ذكرى تضحيته هي ملهمتي في كل ذلك، ورغم ان الفكرة كانت تغيظني فقـد كنت اجلس الى طاولتي احاول الكتابة ولكن الساعات كانت تمر مجدبة قاحلة فما عانيته لا يمكن تفسيره وكتابته طوال هذه السنين الخمس وانـا اردد بدون انقطاع بأنني لو قتلتها لكنت الآن مرتاح الضمير، فقد كانت الجريمة تخصني - فأنا او هي - لقد حرمني نفسي. ولن يعود السلام الى نفسي بعودته بل سيزيد في تعاستي واذلالي. لقد انتهيت الآن. أيجسر ان يعرض بحالتي هذه، هل سيدعي بأنني لم اكن كفئاً لتضحيته؟.

كان يجب التصريح، التكلم مباشرة بعد الحـادث، ولم يكن يجدر بي السماح له ان يبعدني بهذا الشكل وان يعـاقبني بالصمت، واذا كنت جباناً فلقد كفرت عن ذلك طويلاً، ثم بأي حق سيكون قاسياً علي؟.

غداً سأراه ويجب عليّ ان اضبط مشاعري كيلا اصدمه باشمئزازي — . . . ولكن لماذا لا أفر من وجهه ؟ .

***

ادخل . . . صرخ بصوت عال . . . واخذ ينصت للمفتاح وهو يدور في القفل . كانت اصابعه تضغط بشكل هائل على سواعد المقعد، كلا، انه لن يلتفت . . واخذ يحدق النظر في المرآة بانتباه شديد .

— جان ! . . . فأخفى وجهه بذراعيه وبقي لحظة على هذه الحال ثم تركهما يتساقطان .

— لويس . . .

وبقفزة واحدة دفع عنه المقعد . وعندما اصبح على خطوات منه اخذ يتأمله بدهشة شديدة فلم يكن ليتذكره ، لقد تغير عليه كثيراً، وضعف ضعفاً هائلاً ، ولقد تجعدت بشرته واصطبغت بشحوب شمعي .

— ماذا . . . الا تستقبلني بطريقة احسن من هذا الشكل؟

ولكن جان ابتعد دون ان ينبس ببنت شفـة ، وتوجه نحو المقعد . واخذت كتفاه تهتزان من شدة البكاء .

— هيا تمالك نفسك ، الا تراني اكاد اطير من الفرح . . .

— ولكني اراك قريباً من الموت .

وارتسمت على وجه لويس تلك الابتسامة اللطيفة .

— لم يحن الوقت بعد ،

— ما بك ؟

— ألا يمكن ان نتناسى الأمر ؟

وانتصب جان وعيناه ترسلان شعاعاً شريراً ، فهو لن يعود ليقع تحت تأثيره ولن يدعه يتسلط عليه .

— لقد هدمت حياتي واني اكره تضحيتك . . . اني اكرهك .

— اصمت . . . كم كنت اود ان تعلم ذلك القليل الذي تحملته .

— ولكنك مشرف على الموت .

— اعرف ذلك ، بل لقد كنت اعرف ذلك من قبل ، ولذلك . . .

— ماذا تقول . . . كنت تعرف ماذا ؟ .

— اني مصاب بالسرطان .

واجهه بهدوء على الجلوس اذ بقي جان منتصباً وعيناه تحملقان في لويس بذهول واستغراب .

— الا ترى — وانا احمل لك اعمق العواطف ، واثق كل الثقة بمستقبلك — انه من السهل علي ان احل مكانك ؟

وهز جان برأسه هامساً .

— كلا — اني لا احب قداستك هذه ، لا احب بطولتك . .

ثم استطرد بصوت اشد قوة .

— لماذا لم تبح لي بشيء من ذلك آنذاك ؟

وابتسم لويس مرة اخرى .

— ربما كنت بطلاً ولكنني بطل محتشم .

— ولكني متمسك بكرهي . . أجابَ جان بصوت لا يكاد يسمع ، يجب ان اتخلص منك . افهمتني؟ يجب عليّ ذلك؟

وساد السكون برهة . . . واستأنف لويس الكلام .

— ربما كنت على حق، ولكن هل انت مستعجل بهذا المقدار؟

وبدأ التردد عليه لحظة وهو يتفحص نفسه في المرآة ثم توجه نحو طاولة العمل وخمن جان ما يريد .

— لا تفتش — لن تجد شيئاً اذ لم اسطر كلمة .

فرجع لويس بتؤدة نحو مقعده .

— سينتهي الليل عن قريب يا جان . . . اتذكر . . . واخذ يقرأ .

« يفجر الله النور بتلك الحركة الازلية التي يطوي بها وشاح الليل وهو يجود بآخر زفراته »

وكانت هذه هي الجملة الاخيرة لكتاب الفه جان .

— لقد كنت دائماً الأقوى . . . ومن قوتك هذه اريد ان اتخلص .

— اعذر ترديدي ولكنك لن تنتظر طويلا .

فحملق فيه جان وقد شاب نظراته نوع من الوداعة :

— خمس سنوات . . . لقد خبرت الموت جيداً . « قال ذلك حالماً »

— اصمت . . . دعني انسى .

وفجأة، وبلهجة مفعمة بالاجهاد والتعب ، اخذ يستعطف وهو يرتمي على المقعد .

— دعني انسى . . . دعني انام . . .

ونهض جان وتناول غطاء ودثره به .

وكان يستغرق في رقاده، بسلام وعلى جبينه تراقصت قطرات لامعة من العرق واخذ جان يتأمله من كرسيه بعمق، وقد امتلأت عيناه بالشفقة الظافرة .

حكمت نابلسي



العميان يقرأون كتب المبصرين

استطاع العميان ان يقرأوا الكتب التي كتبت بطريقة « برايل » مما أدى الى انتشارها بينهم انتشاراً هائلاً . ولكن ظلت قليلة العدد ، محصورة الغاية . واستطاع بعض العميان ايضاً ان يكتبوا على « الآلة الكاتبة » ولكنهم وقفوا عاجزين عن اعادة قراءتها او قراءة جواب ما كتبوا .

وقد وجد منذ عدد من السنين جهاز لهذه الغاية دعي فوتوالكتروغراف تومـاس ، وللقراءة به تكبر صورة المقروء وترسل الى لوحة تحتوي على اثنتين واربعين ذرة كهربائية . وهذه الذرات تثير على عددها عيداناً معدنية تتحرك تبعاً لبياض وسواد الحروف المتتالية بواسطة جسّاس حاد الرأس الا ان هذا الجهاز لم يكن وافياً بالغرض تماماً عدا عن تكاليفه الباهظة .

وقامت بعد ذلك عدة محاولات اخرى لصنع اجهزة تحوّل الاحرف الطباعية الى اشارات مسموعة ، وكان اولها « الابتوفون » تولى صنعه فورنيه دالب ، غير ان هذا الجهاز لم يسلم من العيوب التي جعلته صعب الاستعمال ، ولكن الدراسات العظيمة التي جاءت بعد هذه المحاولات الاولى مكنت العالمين زوريكين وفلوري في الولايات المتحدة من ايجاد جهاز بسيط وسهل للغاية ، وستقوم بتحقيقه شركة (ر . ك . ا) .

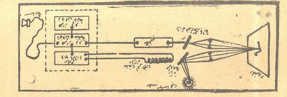
وطريقة استعماله بسيطة للغاية ، وذلك بـامرار خيوط من الاشعة الضوئية فوق الحروف فتنعكس بها اقسام الحروف البيضاء والسوداء الى حيث تلتقطها ذرة ضوئيهكربائية وترسلها الى مضخم مما يجعلها قابلة للتأثير على هزاز ذي موجات متقلبة لا تؤثر فيه الا تموجـات الاشعة الصادرة عن الخطوط السوداء التي تؤلف الحروف .

هذه التموجات الملتقطة تتحول الى اهتزازات تتوافق مع تنقلات الاشعة العاكسة اذا ما سيرنا القارىء الكهربائي تبعاً لسطور الكتـابة وبذلك تتحول الاهتزازات الى اصوات مسموعة . [انظر الشكل]

وحذراً من ان يستعصي على القـارىء في اول الامر الاستمرار مع السطر فقد أرفق بهذا الجهاز ضابطة تهدي القارىء الكهربائي من ان يضل ، ولكنه سرعان ما يستغني عنها ويرميها جانباً .

وبما ان الاصوات التي تصدر عن الاهتزازات هي اصطلاحية بحتة لذلك يقتضي للاعتياد بعض الوقت لتمييز رنة كل حرف عن الآخر قبل التمكن من القراءة السريعة .

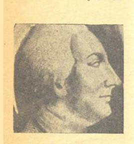
ان هذا الجهاز الذي يبدو لنا انه بسيط قد اقتضى لتحقيقه استعمال احدث الآلات وادقها اذ ان قطر الباحثة التي ينقلها الاعمى فوق الحروف لا تتجاوز ضعف قطر قلم الحبر المعروف ويحتوي على لمبة مشعة ومرآة



هزازة وملف تحريضها وذرة ضوئيهكربائية ولمبتين للتضخيم واخيراً صندوق صغير يضم باقي الادوات (مراوح ذو ٣٠٠ ذبذبة في الثانية ومراوح آخر ذو ذبذبات ثابتة وثالث ذو ذبذبات متقلبة ومضخم وبطارية كهربائية) ، عدا عن سماعة صغيرة يمسكها الاعمى بيده .

والى اليوم لم يعرض هذا الجهاز في الاسواق لان دراسات خاصة لا تزال تجري عليه لجعله اكثر وفاء بالغاية التي انشىء من اجلها الا ان النتائج التي أداها الى الآن تبشر بأكبر الآمال .

من هما الاخوان مونغولفيه ؟

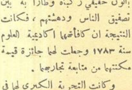


ولد جوزف ميشيل مونغولفيه (١٧٤٠ – ١٩١٠) في فيادالون لازانوناي على نهر الارداش في فرنسا وراح يهتم بصنع صفائح الطباعة النحاسية يعاونه في ذلك اخوه اتيان (١٧٤٥ – ١٧٩٩) واليهما يرجع الفضل في عدة اختراعات في القرطاسية اهمها ورق « العالم الكبير » و « الفالان » .

ولكن الاخوين كانا مغرمين بالرحلات الهوائية ، وفي هذا الحقل تركا اسماً خالداً في التاريخ ، ففي القرن الثامن عشر لم يكن يستطاع التفكير بالصعود في الهواء الا بواسطة الغازات التي هي اخف من الهواء وهذا ما لجأ اليه الاخوان اذ كانا يعرفان ان الهواء الساخن هو اخف من الهواء العادي ، فان ثقل الهواء النوعي يقل كلما ازدادت حرارته فهو على ٢٧٣ درجة أخف مرتين منه على صفر درجة .

وعلى هذا احضر الاخوان منطاداً من « التفتا » وملأوه بالهواء الساخن وسرعان ما شق طريقه صاعداً في الفضاء .





شجعتهما هذه التجربـة لصنع بالون حقيقي ركباه وطارا به بين تصفيق الناس ودهشتهم ، فكانت النتيجة ان كافأتهما اكاديمية العلوم سنة ١٧٨٣ ومنحت لهما جائزة قيمة مكنتهما من متابعة تجاربهما .

وكانت التجربة الكبرى لهما في السنة التالية في مدينة ليون فصنعا بالوناً لا يتجاوز قطره مئتي قدم وركباه برفقة بيلاتر روزيه . فكانت هذه الرحلة في الهواء الاولى من نوعها التي عرفتها الانسانية بعد حلم ايكار .

(ايكار هذا كما في الاسطورة هو ابن ديدال الذي فر طائراً من قصر الوحش مينو في جزيرة كريت بواسطة جناحين الصقهما على جنبيه بالشمع . ولما قرب من الشمس سـاح الشمع وسقط الجناحـان على الاثر وسقط المسكين في مياه البحر ، ويُشبّه به اليوم كل الذين يخفقون في الطيران) .

في كلمات ..

● يقول الاستاذ اوليفان الخبير في الطاقة الذرية، ان القنبلة الذرية ما هي الا احد الاسلحة الرهيبة المبيدة للانسانية اذا بقيت سائرة في هذا الطريق الذي يؤدي بها الى حرب جديدة،

وعندئذ تكفي مئة من القنابل الذرية لتدمير الصناعة البريطانية بينما لا تكفي ألفا قنبلة مماثلة لاحداث نفس الاضرار في اقتصاديات روسيا .

● تملك بولونيا اغنى مناجم الاورانيوم في اوروبا بعد مناجم كاراليا • وهذه المناجم تقع في كرزنانكا في سيليزيا السفلى وقد استثمرها الالمان اثناء الحرب واستخرجوا منها غراماً واحداً من الراديوم في السنة ثم دروها بعد انسحابهم . ولا تزال اعمال الاصلاح ناشطة حتى الآن رغم الصعوبات الناتجة عن نقص علماء طبقات الارض فليس في بولونيا اليوم سوى ثلاثين عالماً .

● استطاعت جامعة سان جوان في بورتوريكو ان تدخل تحسينات عظيمة على زراعة قصب السكر ما يجعل الهكتار من الارض يعطي ١٨ طناً منها ، ويكون بذلك قد زاد ثمانية اطنان على المعدل الاعلى المعروف الى اليوم ، وقد اتخذت الاستعدادات لادخال هذه التحسينات على جميع المزارع .

● صرح اخيراً احد مديري شركة وستنكهوس انه من الان فصاعداً اصبح من السهل اقامة جهاز راديو مرسل لا يزيد وزنه على ٢٥ كلغ - تغذيه بطاريات لها الوزن ذاته- يستطيع ان يرسل اشارات قوية نوعاً من القمر الى الارض . وتقول جريدة معهد فرانكلن ان نقلها الى القمر سيكون بواسطة صاروخ يطير بسرعة ٦٥٠٠ كلم في الساعة يستغرق ستين ساعة للوصول اليه . ويسير هذا الجهاز ابداً نظام آلي يغذيه كل بضع ثوان ،

وبواسطة هذا الجهاز سيستطاع تسجيل تموجات الحرارة على سطح القمر ، وبذلك ستحل بعض المشاكل التي لا تزال موضوع نزاع بين العلماء كمسألة وجود بخار الماء في جوه .

وقد اخذت كل الاحتياطات اللازمة لوصول هذا الجهاز الى سطح القمر سالماً من كل تهشيم يعتريه بواسطة اجهزة الرادار .

● عاد الدكتور روبنسون اخيراً من رحلته الى القطب الشمالي فاوضح ان القطب الشمالي المغناطيسي قد تنقل مسافة ٢٥٠ كيلومتراً منذ ١٥ سنة وانه الآن عند الدرجة ٧٣ من خطوط العرض الشمالية وعند الدرجة ١٠٠ من خطوط الطول الغربية . ومع ذلك فالعالم لم يستطع اكتشاف ومعرفة اسباب تغيرات نقطة القطب وطافت بعثة روبنسون في جزيرة امير الغال فلم تجد فيها كائنات حيوانية او نباتية .

● صرح الدكتور س . ب . رودس مدير معهد ابحاث السرطان ان التحقيقات العلمية الاخيرة تتجه للدلالة على انه في انواع السرطان تكمن عملية تطور الجسم الانساني وبنائه وان المعهد يتابع الابحاث العلمية الدقيقة لمعرفة كيفية تصرف الجسم البيولوجي عندما يصاب بداء السرطان وقال ان الغاية من هذه الابحاث هي كيفية تقوية مناعة الجسم البشري ضد هذا الداء الوبيل .

هذا وقد تبين للمعهد ان المصابين بالسرطان في الامعاء تعوزهم البروتينات في الدم وان المصابين بالسرطان في الكبد لا يستطيعون خزن احتياطي من السكر وان المرضى يجدون صعوبة كبرى في فرز الاملاح بعد اجراء العمليات الجراحية لهم .

وان هذه المعلومات جعلت العمليات الجراحية اقل خطورة في حالات كثيرة اذ يسهل الآن اتخاذ التدابير الوقائية قبل العملية وبعدها .

● جاء في البرقية التي وجهها الرئيس ترومان الى الدكتور كاودري رئيس المؤتمر الرابع لابحاث السرطان الدولية ان لجنة الطاقة الذرية للولايات المتحدة ستضع عدداً من « اجهزة اشعة خاصة » تحت تصرف المختبرات الطبية والبيولوجية الاجنبية للقيام باعمالها المتعلقة بداء السرطان .

ويعرب الرئيس ترومان زيادة على ذلك عن ان هذه الاجهزة ستعمل على انقاذ الحياة وتخفيف الآلام التي يحدثها داء السرطان في العالم بكامله وتقول لجنة القوة الذرية الاميركية ان الجهاز الجديد هو من اهم الآلات الطبية منذ اختراع الميكرسكوب .

● لا تزال مختبرات المعهد الفني لمدينة باسادينا في كاليفورنيا تهتم لاتمام العدسة البالغ سمكها ٥٠٨ سنتيمترات للمرصد المنوي تركيزه على



قمة جبل بالومار في كاليفورنيا ، ويتوقع ان ينتهي تركيزها في اواخر هذا الصيف او اوائل الخريف . وبذلك سيتمكن علماء الفلك من مباشرة اعمالهم فيه في اوائل كانون الثاني سنة ١٩٤٨ . لقد كان هذا المرصد [انظر الشكل] نتيجة لتسع عشرة سنة من العمل المتواصل .

● اكتشف الاب اندريه غلوري وروناين بيرت رئيس جمعية « ما قبل التاريخ » هياكل عظمية تعود الى ما قبل التاريخ في مغارتين بضواحي اسبيت في الغارون العليا . ويعتقد ان هذه العظام تعود الى ٣٠٠٠٠ سنة من نهاية التاريخ البرونزي . وقد وجدت لوحة تمثل الشمس واشعتها .

● برهنت الاختبارات التي اجريت في مختبرات وزارة الزراعة الاميركية ان للبنسلين مفعولاً قوياً في مداواة ديوك الحبش المصابة بتورم الجلد ، وهو داء يصيب الخنازير ايضاً ، لذلك انشئت مصالح عديدة لهذا الغرض . والعجيب ان ديوك الحبش لا تصاب بهذا المرض الا عندما تكبر وتصبح صالحة للبيع او الاكل ما يسبب الخسارة الفادحة .

والصورة هنا تظهر الدكتور س . ج . غراي الذي يدير التجارب في مختبرات الطب الحيواني في وزارة الزراعة الاميركية وهو يلقح ديكاً مصاباً في غدد عنقه بمزيج من الزيت والبنسلين .



• توصل هوارد هوغز الى ايجاد جهاز رادار للارتفاع يحذر الطائرات من الاصطدام بالجبال وقد صرح اخيراً قائلا : «سأقضي بذلك على ٩٠ ٪ من حوادث الطيران » . والبرهان على ذلك صعد بطائرة بصحبة بعض الصحفيين ثم هبط عامودياً على سلسلة من الجبال ، وعندما وصل الى علو ٦٠٠م منها انبعث امامه ضوءان اصفران ينذرانه بوقوع الخطر والما صار على علو ١٥٠ م ظهرت الوان حمراء تنذره بضرورة تغيير الاتجاه نظراً لاقتراب الخطر جداً .

وتبلغ تكاليف هذا الرادار ١٣٠ دولاراً ويستغرق تركيبه في الطائرة خمسة اسابيع .

• لا يحوي الهواء الذي يحيط بنا الا اثاراً ضئيلة من الهيدروجين يكاد يبلغ ٠٫٠٠٠٢ ٪ ولكن كلما تصاعدنا في الجو زادت نسبته حتى تكثر في الستراتوسفار وتتكاثر ايضاً اذا ما صرنا في الايونوسفار فاذا ما صرنا على علو ١٣٠ كلم صار الجو كله من الهيدروجين الخالص تقريباً وهناك تتجاوز حرارته ١٠٠ درجة سنتيغراد .

• يبلغ طول الطرقات على سطح الكرة الارضية ١٧ مليون كم اي ما يقارب اربعمئة مرة محيط الارض ، ويهمنا ان نحدد هنا نوع الطرقات لاننا لا نستطيع ان نضع الجادات الكبيرة التي تخترق العواصم الكبرى الى جانب طرقات ومطرا الضيقة وانما عددنا هنا الطرقات التي يسهل فيها السير سهولة تامة ولا تضايق مرور السيارات .

• تستهلك السيارات ثلثي انتاج الكاوتشوك العالمي اي ٦٠٠٠٠٠ طن في السنة ويلاحظ ان نصف هذه الكمية تستهلكها سيارات امريكا .

• ما فتيء معهد باستور في الجزائر منذ سنة ١٩٣٦ يحضر مصلاً واقياً ضد لسعة العقرب وقد ابرق حديثاً مديره ادمون سرجان الى اكاديمية العلوم في باريس يخبرها عن آخر النتائج التي توصلوا اليها . فقد اعطى للاطباء في عشر السنوات الاخيرة خمسمئة لتر من هذا المصل الواقي للسعات مختلف انواع العقارب في افريقيا الشمالية . وبلغت الحالات الخطرة التي تعرض اصحابها لخطر التسمم ٥٣١ . - اذ ان درجة التسمم تختلف باختلاف العقرب وبمقدار عمر الملسوع - شفي منهم ٤٧٢ اي ٨٩ ٪ اما عدم شفاء الآخرين فيعزى الى تأخرهم عن المداواة .

• اعلن رسمياً ان نوعاً جديداً (اليفا) من القنبلة الذرية قد اكتشفه العلماء مؤخراً لاجراء التجارب الذرية من اجل الاغراض السلمية . وذلك بايجاد مادة ذرية جديدة تتفجر تفجراً متعاقباً بطيئاً تمكنهم من ادارة الآلات الكبرى والمحركات .

هذا التطور الجديد الذي يصفه العلماء بالقوة الذرية الطائعة هو نوع من التفجر التسلسلي الذي كان يسعى العلماء لايجاده ليتم استخدام الطاقة الذرية في المصانع . والمادة التي تستخرج منها المادة المذكورة هي ذرة البلوتونيوم .

• اكتشف بعض البحاثين البريطانيين علاجاً جديداً في اثناء تجاربهم العلمية تبرهن انه يشفي من السعال الديكي وهو المرض الذي ما زال يفتك بالاطفال وقد سمي الدواء الجديد ايروسبيرين . فجرب على الحيوانات الحاملة لجرثومة المرض المذكور فكانت النتائج باهرة . ويجدر بالذكر ان هذا الدواء كان فعالاً في شفاء الحيوانات المصابة بمرض التيفوئيد . ومن امتيازات الايروسبيرين انه يمكن انتاجه بسهولة كبيرة ولا يفسد بالخزن .

• اذا لطف البنسلين ثمانين مليون ضعف يظل قادراً على قتل بعض الجراثيم . هذا ما صرح به السير الكسندر فلامنغ مكتشف البنسلين البريطاني في اجتماع عقدته الجمعية البريطانية مؤخراً .

وتنبأ الطبيب عن التقدم العظيم الذي سيطرأ على العمليات الطبية في مستقبل الايام بفضل البنسلين والمبادىء المكتشفة مع...

• يحار العلماء في اختلاف النتائج التي يحصلون عليها اثناء فحصهم لدم المصاب بالسل بين مختبر وآخر . وبعد التدقيقات التي اجريت في هذا الشأن تبين لهم انه ناتج عن تدخين بعض الاشخاص في مختبر دون الآخر اثناء فحصهم لهذا الدم .

• ان تعاطي الادوية السلفاميدية بمقدار قليل لا يؤدي الى الغرض المنتظر منها ، واذا استعملت بكميات كبيرة افادت ولكنها تسبب الحصى في الكليتين ، ولتفادي هذا الضرر لجأ العلماء الى مزج ثلاثة انواع من السلفاميد وهي سلفاتيازول وسلفاديازين وسلفامارازين وجعلوا منها دواء واحداً هو السلفاديانال وقد تبين من التجارب التي اجريت على الارانب وعلى المئات من الاشخاص ان هذا الدواء وان اعطي بكميات قليلة يكون له نفس مفعول الكميات الكبرى من السلفاميد بمفرده ودون ان يكون الحصى في الكليتين .

• بالنسبة لندرة مادة الستربتومايسين وهي المادة الجديدة الفعالة ضد الجراثيم المرضية والتي لها بعض الخواص المماثلة للبنسلين رأى الاطباء امكان استخلاصها من بول المعالجين بها حيث ان ما يزيد عن ٦٠ - ٨٠ ٪ من المقدار المحقون في الجسم يفرز في البول . ولقد اتضح لهم ان الستربتومايسين المستخلص من البول اقل سمية من المادة الجديدة التحضير ، وكأن مرورها في الجسم يزيل عنها سميتها الضارة بالكليتين .

• اعلن مؤخراً ان مادة السيبرتو قد اكتشف لها منفعة طبية جديدة وهي انها تخفف ضغط الدم البشري بحقنها غير ممزوجة (اي ان لا تحتوي على اكثر من واحد بالمئة من الماء) في خلايا الاعصاب في الحبل الشوكي اذ تحول دون عمل بعض الخلايا السمبثاوية وتخفف ضغط الدم لوقت قصير بل تخفيفاً دائماً . فوجد الدكتور الدروث من مستشفى في نيوجرزي ستي ان تخفيض الضغط بحقن السيبرتو الى الخلايا العصبية يزيل في الحال الدوار ووجع الرأس وغيرها من اعراض الضغط الدموي .

ويحقن السيبرتو اولا في الجانب الايسر من الظهر وبعد اسبوع في الجانب الايمن فتقتل عقد الخلايا العصبية وهكذا تغني عن العمليات الجراحة وصحت هذه المعالجة حتى في الحالات المرضية غير الصالحة للعمليات الجراحية .

• تكلم كل من الدكتورة مارغريت جاكسون والمستر كاير هاولي عن نتائج ابحاثهما في التلقيح الصناعي في الانسان والتلقيح بمني الزوج ومني آخر منتج ، فذكرا انهما اختارا حالاتهما من بين الازواج الذين لم ينتجوا اولاداً بدون استعمال اي موانع للحمل . وقد وجدا ان لقاح الازواج في ١٦٥ حالة لم ينتج الا حملين صناعيين انتهى احدهما بالاجهاض والثاني بولادة مبكرة قبل ميعادها وبالتلقيح بمني متبرع به ومني ازواج مزدوج او كل على حدة وجدا ان عددا قليلا جدا يسبب الحمل وحتى هذا الحمل الصناعي ينتهي احيانا بالاجهاض واحيانا اخرى بالولادة المبكرة . ويستخلصان من ذلك ان التلقيح الصناعي بلقاح الازواج لم يأت بنتائج طيبة وان الاتصال الجنسي الطبيعي انيد من الصناعي في انتاج الحمل الصحيح .



من وراء الافق

للاستاذ محمد عبد الغني حسن – ١١٠ صفحات – دار المعارف بمصر

هذا ديوان من الشعر ضمنه مؤلفه بعض قصائد معظمها مستوحى من رحلة قام بها الشاعر في اوروبا ولا سيما في انكلترة، حيث كان يتلقى العلم. وقد قدم لهذا الديوان الاستاذ انطون الجميّل باشا، فاجتزأ بحديث قصير عن صديقه المؤلف، ثم سرد بعض شعره في غير ما تحليل، ودون ما تبيين لمزاياه، الا بعض كلام عن سهولة هذا الشعر، وقد انتهى صاحب المقدمة الى قوله: «لذلك تقرأ هذا الديوان هادئ البال، مطمئن النفس، لا تثير العواطف الصاخبة، ولا تقلقك مشكلات الحياة المعقدة».

ولست ادري، أفي تقرير هذا، اطراء للشاعر ومديح، ام انه كلام له خبيء؟.

الواقع انه ليس في شعر الاستاذ محمد عبد الغني حسن ما يثير. ليس فيه ما يثير العاطفة والشعور، وليس فيه ما يثير الفكر ويدعو الى التأمل.. وهو شعر جامد عادي، يخلو من الالتماعات العاطفية، ومن البدوات الفكرية. وخلوه من هذين العنصرين – وهما من مقومات الشعر الجيد – يجعله اقرب الى النظم. وهذه السهولة التي يصف بها الاستاذ الجميّل شعر الشاعر، لا تُحمد له، لانها اعقبت شعراً عادياً جداً في اساليبه، وفي ما احتواه من احاسيس وافكار. ولو ابتعد الشاعر عن هذه السهولة، وتكلف قليلاً من العناء في اسلوبه وفكرته – وهذا شأن الشاعر المجيد – لكان شعره خيراً من هذا الذي قدمه لنا في هذا الديوان.

اقرأ قصيدة «ربيع الغريب» مثلاً، تجد انه ليس فيها ما يروع من عاطفة او فكرة، وهي حنين مغترب الى وطنه، ولكنه حنين بارد ليس من شأنه ان يعبر عن تلك العاطفة المشبوبة التي تحيل المغترب قطعة من الشوق والحنين الى مسقط رأسه:

تركت مصر وعيني من مسارحها ... شكرى وقلبي الى جناتها داني
ما ضرّ لو كنت طيراً في خمائلها ... اشدو من الشعر افراحي واحزاني
ما ضرّ لو عشت فيها غير منتظر ... رجلاً بلندن او اخرى بلوزان

تركت فيها جمالاً فاتناً عجباً ... الى جمال مريع غير فتان..
هنا جمال ولكن لا أمان له ... هنا نعيم ولكن زائل فاني
في الغرب ما شئت من لهو ومن لعب ... وفيه ما شئت من علم وعرفان
يا عائشين باجسام منعّمة ... لا تظلموا الشرق ان الشرق روحاني

فاي جمال واية روعة في هذا الشعر البارد الباهت؟! واذا استمررت في تلاوة هذه القصيدة الفيتها كلها تذكراً جامداً لمرابع الوطن ومطارحه. وتلي هذه القصيدة قصيدة «ذكرى الوطن» وهي في وزنها اوقع من الاولى وفي قافيتها اكثر موسيقية، بيد انها في معانيها شبيهة بالاولى، فضلاً عن ان في هذه المعاني كثيراً من الترديد، ففي هذه القصيدة ثلاثة ابيات تحتوي المعنى الواحد:

حمى نأى الجسم عن مرائمه ... لكن قلبي ما زال متجهه
بعدت بالجسم عن مواضعه ... لكن قلبي بالذكريات معه
يا مصر قلبي اليك متجه ... يا مصر عيني اليك مطلعة...

وهو معنى بسيط ساذج لا يسعنا ان نلتمس للمؤلف المعاذير من ترداده...

وهذا الديوان يخلو من الشعر الغزلي ومن وصف المرأة. وانا لا اكاد اتصور ان يكون انسان شاعراً ثم لا يتحدث عن المرأة ولا يصفها ولا يتغزل بها!.. فهي اعظم ما تكون ينبوعاً للالهام ومصدراً للوحي، ولا سيما العاطفي منه. والوحي العاطفي في اعتقادي هو الينبوع الاول الذي ينبغي ان يترح منه الشاعر. ولست ادري: ألّا الشاعر شعر غزلي لم يضمنه هذه المجموعة، ام انه لم ينشد مثل هذا الشعر؟ واياً ما كان، فان خلو هذا الديوان منه يشعر القارىء بالبرودة والجمود في سائر مقطوعات الديوان.

ولننتقل الآن الى التحدث عن الوصف، فالشاعر عاشق الطبيعة، مفتون بجمالها، والمفروض فيه ان يستجلي مظاهرها ويصف سحرها. غير ان الشعور الذي يحس به القارىء، معه هو ان الطبيعة اجمل جداً مما يصفها الشاعر، واشد فتنة وسحراً... وهذا معزو في نظرنا الى ان الشاعر وصّاف فاتر، ينقصه كثير من الاحساس بالفتنة والتعبير عنها. وهو اذا شاء ان يصف لك شيئاً جميلا او منظراً فاتناً، يكتفي بان يقول ان هذا الشيء جميل، وذلك المنظر فاتن. اسمعه يقول في قصيدة «فوق القمم»:

الشمس تبدو في الثلوج كأنها ... زبد على بحر عظيم مزبد
لاحت من الافق البعيد كأنها ... أمل يلوح لراقب مترصد

بعثت الى الوادي الحياة وايقظت | زمر النيام به وجمع المجدّ
يتسابقون الى الصعود كأنهم | كانوا على باج الصباح بموعد

اننا لنعجب ان تبدو الشمس كأنها زبد.. فما هذا الوصف الذي لا يمكن ان يكون صحيحاً ولا معقولاً ؟.. ثم اي تشبيه هذا: لاحت الشمس في الافق كأنها امل يلوح لراقب.. اي وجه للشبه بين الشمس والامل ؟ وتعبير «كانوا على باج الصباح بموعد» تعبير خاطىء جره الوزن، فالحقيقة انهم كانوا من باج الصباح على موعد...

ثم استمع الى وصف الجدول، تجد انه وصف سطحي فقير كل الفقر بالتشابيه والاستعارات:

الجدول الجاري يعج بمائه | في هدأة الصبح الجميل الأسعد
تتكسر الامواج فوق صخوره | وتروح بالزبد الكثيف وتغتدي
متهدّر لجب المواقع صاخب | متدفق كالسيل فوق الجامد
الماء في القمم المنيعة جامد | والجدول الصخاب لم يتجمد

وتجد كذلك هذا الفقر والجمود والسطحية في التعبير والفكرة في قصائد «الجبل الابيض» و«موجة» و«شعاع الشمس». اما قصيدة «بطارف الربيع» فزاخرة بالاستفهامات الساذجة والتعجبات العادية، وترديد عبارة «ما لهذا...» اكثر من عشر مرات يبعث بالملل كله دون ما اثارة لحس او فكر. واذا قرأت مقطوعة «الا انا» وجدت فيها وصفاً عادياً للصبح يخلو من الابداع والروعة والاوصاف المبتكرة:

الصبح في الوادي يرف سكونه | فكأنه لهجد الجمال مسكنا
نعسان ما بين الهضاب كأنه | يلقي جسا مهدا طرباً لينا
لا توقظوا تلك الطبيعة حلوة | لا تزعجوها بالضجيج مطنطنا..

فما اثقل «الضجيج مطنطناً» في مثل هذا الموضع والشعر! ونقول مثل ذلك عن المعنى البسيط الذي تضمنته قصيدة «من وراء الافق» ونحن نتساءل عن معنى هذين البيتين في «بيت الشاعر».

تلك البحيرات وشطآنها | توحي الى الشاعر معنى الكلام
توحي الى المفتن من فنها | وتلهم المغرم معنى الغرام..

واقرأ الضعف في الشاعرية والوصف في هذه الابيات المختلفة:
وجرى الماء «كاللجين الجاري» عاكساً ظل «هذه» الاشجار

***

وهنا في ظلال «تلك» الروابي سحرتني من الجمال «مناظر»؟

***

تساقيني بالود كأساً مليئة واسقيك بالكأس المليئة من ودي

***

السحر في البحر «أشكال والوان» والحسن في البحر «مفتون وفتان»
وهذا البيت، هل ينشده الا واضع «اغاني شعبية»:
يا ليت ان حبيبي يا قلب يدري بحالي!!

وتأمل ايها القارىء هذا التشبيه:
وقفت والبحر قد جاشت ثوائره كأنه قطرة من مدمعي الجاري!

اجل! تصور ايها القارىء دمعاً جارياً ليس البحر الهائج الثائر الا قطرة منه!.

وهذا البيت الذي ينقصه كل شيء يحتاج اليه الشعر:
ازدان فوق الشاطىء الرمل فهو من الامواج مبتل!

وانظر ما ابلغ كلمة «فاعلمي» في قوله:
الدين يا ابفون لا يُشترى الا بدينار التقى فاعلمي!

***

وبعد، فاننا لم نجد في هذا الديوان الا شعراً باهتاً لا شخصية له ولا ميزات، وهو شعر لا تجول في ثناياه الاحاسيس المرهفة ولا تلتمع المعاني المبتكرة، وليس فيه الا الوصف العادي الذي لا يضفي على الموصوف اي جمال، بل لا يكاد ينجح في ان يصف جماله الطبيعي. بيد ان الانصاف في النقد يقتضينا ان نشير الى بعض مقطوعات أصاب المؤلف فيها حظاً من التوفيق، منها قصيدة «على مسيل الدماء» التي تنبعث منها عذوبة وسلاسة وموسيقى فقدتها معظم قصائد الديوان ومنها قوله:

قالت سكت وما عهدتك ساكتاً | انا ما عرفتك في الحوادث صامتا
وعدوت صوتاً في المسامع خافتا | أتراك تندب من شبابك فائتا

فأجبتها

والقلب محطوم الرجاء | كيف الغناء مع الدماء
كيف الترنم بالنغم | ما بين انات الألم
فوق الضحايا والرمم ؟

وجميل قوله معنى ومبنى في قصيدة «قبل ان تسكت الحياة»:

غنّ يا صاحبي على العود واضحك | قبل ان تسكت الحياة وتهدا
غنّ في هذه الحرارة يوماً | قبل ان تملأ الحديقة بردا
غن والورد في الخميلة غض | قبل ان يذبل الشتاء الوردا
كنت يا صاحبي كما انت تبكي | فرأيت الالفاظ بالدمع أجدى
كنت لا استسيغ عيشي ولكن | لم أجد يا اخي من العيش بدّاً

وقد اصابت قصيدة «المجهولة» نصيباً من التوفيق لأن فيها صدق الشعور وعمقه ومنها قوله:

شفتاك تبتسمان عن سخرية | عيناك تغتمضان عن اغفاء
تلك الحياة وما أشد همومها | هصرتك هصر العود في الانواء
السر في شفتيك مضموم على | جرح ومطوي على ادواء.

وفي قصيدة «بقية الكأس» نفحة شعرية ملهمة لعل مبعثها الغرام المؤود يملأ القلب اسى وحزناً ويأساً:

يا خائن العهد عهدي في الهوى باقي | تنبيك عنه صباباتي واشواقي
أخلفت بالصد ميثاق الهوى زمناً | لكنني في الهوى احكمت ميثاقي

لم يبق لي من تعلات تعللني الا خيالك فهو الدائم الباقي

وفي آخرها هذا البيت الرائع :

إنا حملنا من الاشجان اكثرها على الفؤاد ، فهلا نحمل الباقي

على ان الابيات الجميلة الموفقة قليلة جداً في هذا الديوان الذي لا يرتفع معظم شعره الى مستوى الجودة بله الابداع .

سهيل ادريس

ذكرى الامير شكيب ارسلان

للاستاذ محمد علي الطاهر – ٥٢٦ صفحة – القاهرة

هذه ذكرى صاحب رسالة تحريرية لشعوب تريد الحياة ودعوة اصلاحية اعلم له تراثه العظيم . والشعوب الناهضة تخلد النوابغ من افرادها بكتاب فيه من آثارهم وما قيل فيهم في الحياة و بعد الموت . لذلك نحن نشكر حضرة المجاهد الاستاذ محمد علي الطاهر على قيامه باصدار كتاب ذكرى الامير شكيب ارسلان ، شكراً يردده ولا شك آلاف من الناس في العالمين العربي والاسلامي ، وقد ضمنه وصفاً لحفلات التأبين التي اقيمت للفقيد العظيم وما القي فيها من خطب وقصائد مع خلاصة لما وقع في يد المصنف من اقوال صحف العالم العربي والمهجر . كما زين صفحات الكتاب بعدد من الرسوم الشمسية للفقيد في مناسبات مختلفة واضاف على هذه المجموعة كلها مقالين او ثلاثة من قلمه مع آخر ما كتبه الامير شكيب من مقالات قبيل وفاته .

واذا كانت صفحات هذا الكتاب التي جاوز عددها الخمسماية صفحة ما اتسعت لاثبات سائر الاقوال والكتابات او انه فاته شيء منها ، فلا عجب في ذلك ، فاية مجلدات تتسع لآثار الامير شكيب وسائر اخباره او تحيط بكل ما قاله وسيقوله فيه الكتاب والشعراء والمؤرخون . غير ان المصنف ، كما ورد في آخر صفحة من الكتاب ، ساع لاعادة طبعه بناء على اقتراح الكثيرين من الاصدقاء ولاستدراك ما فاته من الاقوال . كما انه سيعنى بتصحيح ما وقع من غلطات وتلافي بعض هفوات في نسق ترتيب وتبويب الطبعة الاولى مما لا تخفى على فطنة القارىء اللبيب . وهو يدعو الصحف والمجلات وباقي الاصدقاء والكتاب والشعراء الذين فاته اثبات اقوالهم ان يتفضلوا بارسالها له استعداداً لضمها في الطبعة الثانية . اما العنوان فهو : – ادارة « الشورى » ١١٩٦ شارع الملكة نازلي – القاهرة – مصر .

ومما جاء في هذه المجموعة ان المصنف ابا الحسن عازم ايضاً على ان يؤرخ الامير شكيب بشكل ابتكره الامير الراحل نفسه لما ارخ للامام محمد رشيد رضا في كتابه المعروف « السيد رشيد رضا او اخاء اربعين سنة » . والمصنف يحتفظ بنحو الف رسالة من الامير شكيب سينشر أهمها في كتاب خاص يسميه « الامير شكيب او صداقة ربع قرن » وسيعلق على تلك الرسائل ويشرح ما غمض منها ويتبعها بمعلوماته عن سيرة الامير و بنواح كثيرة من جهاده وما فيه من امور خطيرة وتوجيهات سياسية .

بقي لنا كلمة بشأن قيمة كتاب الذكرى هذا بوجه عام . فهو جميل برمزه ومعناه ، جليل الفائدة بما حواه من معلومات وعبر . فاذا كان اصدقاء الامير شكيب وعارفو فضله لم يجدوا عزاء لانفسهم وأمتهم على فقده غير العمل على تخليد ذكراه ونشر مآثره وآثاره ، فان هذا الكتاب الذي صنفه الاستاذ الطاهر قد سد فراغاً كبيراً من هذه الناحية . والمعروف عن ابي الحسن انه كان في طليعة من اخلصوا للامير شكيب واستمرت المكاتبة بينهما الى ان لبى الامير دعوة مولاه . ثم كان له شرف السبق الى القيام بواجب شعر به الكثيرون من ابناء العرب والاسلام جزاه الله خيراً عنهم جميعاً واقدر الامة العربية الناهضة على ايفاء الامير شكيب حقه من الاكبار والاجلال فتقيم له تمثالاً تراه العين حيثما كانت وفي كل آن ، ويراه الاجنبي فيكبره ويفهم ان هذه الامة تقدر عمل عظمائها و تعترف بجميل من اعطوا حياتهم لها ولم يطلبوا منها شيئاً .

واخيراً لا نغالي في قولنا انه اصبح مرجعاً تاريخياً واثراً ادبياً حافلاً سجلت فيه مآثر فقيد العروبة والاسلام بالوان من الادب والشعر في الوطن والمهجر وباقلام من المشرق والمغرب ومن مختلف الطوائف والنحل وكلها تنطق بفضل الراحل وجهوده المتواصلة العملية والعلمية . ومما زاد في قيمة ذلك كله التعليقات القيمة التي دونها المصنف نفسه فاوضح ما غمض منها وايدها عند اللزوم بحجج منه وبحوادث واقعية كما انه كان موفقاً في كثير مما اورده من انتقادات وملاحظات وهذه الحواشي والتعليقات تسترعي انتباه القارىء فتزيده عبرة وذكرى بالاضافة الى ما ورد في اقوال الكتاب من الفوائد الادبية والمعلومات التاريخية الصحيحة التي اجمع على صحتها ورددها عدد من الشخصيات المنتمية الى اوطان وطوائف متفرقة فزاد من قيمة تلك المعلومات وعزز صدق روايتها .

العبادية – لبنان . امين محمد ابو عز الدين

المقالات

للاستاذ احمد عبد الغفور عطار – ٢٣٨ صفحة
شركة استاندرد للطباعة – القاهرة

هذا كتاب يضم طائفة من المقالات والدراسات لم يرم مؤلفها الاستاذ احمد عطار الى ناحية معينة من البحث والاستقصاء بل جمعها فصولاً في النقد والادب والفن والاجتماع، منها ما نشر في صحف الحجاز ومصر ومنها ما هو حديث اثبته في ثنايا الكتاب كدراسته للمتنبي مثلا .

ومن الانصاف للمؤلف ان نقول ان مقالات هذا الكتاب ممتعة مفيدة مشوقة ، فهي في نظري تلقي ضوءاً كافيا يطلعنا على ما يتحفز اليه القطر الحجازي الشقيق من ميول فكرية واتجاهات ادبية حديثة . ولا بد من الاعتراف ايضاً بان الصلات الادبية والثقافية بيننا وبين الحجاز تكاد تكون معدومة ، وليس ادل على ذلك من هذه الجولات في النقد التي تتناول كتاباً وشعراء هم في الطليعة من الحجاز الادبية بينما نحن نسمع بهم للمرة الاولى مثل : عبد القدوس الانصاري ، الفلالي ، حسين عرب ، طاهر الزمخشري محمد عمر توفيق ، عبدالله عريف ، حسن تقي ، احمد قنديل ، عزيز ضياء ، وتآليف مثل : الفيض آبادي ، رجالات الحجاز ، رحلة الربيع احلام الربيع (شعر) وغيرها ، وكان بودنا لو نقف على هذه الآثار وقفة هادئة والحكم عليها بما تستأهل من بيان وعمق وتجديد .

ويبدو من مطالعة هذه المقالات ان القطر الحجازي وان يك حديث العهد بالاتجاهات الادبية المعـاصرة الا انه يبشر بطلائع وثبة فكرية نرجو ان تتحقق خطاهـا . ومن البديهي ان مثل هذه الفترة التي يجتازها ادباء القطر الشقيق يحدث شيئاً من المحاكاة والتقليد او قل شيئاً من البلبلة والفوضى او هذا كله ، وهذا ما نجد بعضه عند السيد احمد عطار ، فمن يدرسه لا يخامره الشك لحظة بانه يترسم ادباء مصر في كل مقال يكتبه .

ويرى المؤلف في معرض حديثه عن ثقافة الادباء الحجازيين بانه « لا متنفس لهم غير الادب المصري على الاخص ... وان ارواح العقاد والمازني وطه وهيكل تطل من كتاباتهم ، ولعل ذلك من الادمان الطويل لقراءتهم ومن الالفة التي مضى عليهـا اكثر من عشر سنين لهؤلاء الادباء العباقرة .. ».

والذي استرعى انتباهي بصورة خاصة مقال فيه عرض موجز للفنون الأدبية التي يعالجها ادباء الحجاز فيؤكد المؤلف ان لهذا القطر ادباً يصلح للتصدير « الا ان الذي ينقصه ، الدعاية ، فهي وحدها التي اخفتت صوت ادبنا الحي . ولو رزق الدعاية الطيبة والاعلان الحق لبرز الى الوجود واحتل مكانه بين آداب الشعوب العربية» ثم يزيد في الايضـاح « ولو رزق ادباؤنا ناشرين كالحلبي ومصطفى محمد ومكتبة المعارف لعرفهم ابناء العربية في كل بلاد ... »

وهذا كلام حق . وكنت اود ان اتبسط قليلا مع الاستاذ احمد عبد الغفور عطار فاصارحه بان هذا الذي يشكو منه هو العقبة الوحيدة التي تحول بين ادباء الحجاز والوقوف على الادب اللبناني وما فيه من خلق وجمال وانسانية .

احمد عويدات

نار ونور

للاستاذ محمد مجذوب – ١٥٨ صفحة – المكتبة الكبرى – دمشق

سبق لي منذ سنة مضت ان تكلمت عن كتاب « قصص من الصميم » للاستـاذ محمد المجذوب فعرفت فيه من خلال قصصه الجميلة والجديدة في فن القصص العربية ، القصاص المبدع . وها هو الآن يطلعنا على نوع جديد من الانتاج ذلك هو الشعر . وكتابه الذي نحن بصدده ، ديوان شعري متوسط الحجم يجمع بـين الاسلوب القوي المتين والخيـال المجنح في جزالة وبيان وقد صور المجتمع تصويراً صحيحاً ناقداً ما فيه من عيوب نقداً قد يقسو احياناً وقد يشتد احياناً اخرى ، وتلمح فيه نفثات نفس معذبة طالمـا ظلمت وجحدت فضائلها فمن ذلك قوله في قصيدة « جحود » .

اقمت على نفسي رقيباً من النهى … فلست بآتي الامر ينكره لبّي
واكرمت نطقي من ملامة صاحب … تعمّد ان يرمي باسهمه جنبي
كفاني علمي بالذي ضم صدره … من الكذب المعروض في صور الحب
ففيم الاسى ان خانني بعد ، واحد … من الناس معدود عليّ من الصحب

الى ان يقول :

اذبت شبابي شعلة في دروبهم … على حين لم يلقوا سوى الشوك في دربي
سأغمض جفني عن اذاهم تكرماً … الى ان يموت الصبر في صدري الرحب
واترك دنيا الناس للناس ناعماً … بدنيا بناها الوحي في عالم الشهب

جئت بها دليلاً على ما فيها من تصوير بارع للوعة الصـادقة والنفس النبيلة وخساسة بعض افراد المجتمع .

والديوان عدا ذلك يضم نخبة كبيرة من القصائد الجياد ولولا ضيق المقام لتحدثت طويلاً عن مميزات بعض القصائد الرائعة التي ذكرنا بها بفحول الشعراء الاوائل . ولكني اترك ذلك للقارىء الذي سيجد في هذا الديوان متعة ولذة في جو جميل من الشعر .

« مصطفى »

الشرق الاوسط آخر مصدر عالمي للنفط

للاستاذ البير دوكروك

ترجمة مصطفى القصاص

تلك قصة غريبة ، قصة هذا النفط المهدد بالنضوب سريعاً كما ظهر ، هذه المادة الثمينة التي اذا قدّر لها النفاد يوماً واصبحت في عداد الذكريات ستكون من اعجب ما حفظت الانسانية في جميع مراحلها . وحينئذ تبدو مملكة النفط في التاريخ حلماً ، واي حلم عجيب ! هذه الجنيّة اللطيفة التي تدير لنا عجلات سياراتنا ، وتدفع بواخرنا ، وتحيي صناعاتنا بوداعة ودون كلل ، حتى انه لو قيد لأحد معاصري فولتير ان يبعث حياً لفغر فاه دهشة امام سحر معجزاتها .

منذ قرن من الزمن لم يكن يستخرج من الارض قطرة واحدة من النفط ، ففي سنة ١٨٥٨ حفر اول بئر للنفط في « باكو » فبلغ الانتاج العالمي بعد عشرين سنة ثلاثة ملايين طن ، ثم بدأ يصاعد الى ٨ سنة ١٨٩٠ والى ١٨ سنة ١٩٠٠ والى ٢٥ سنة ١٩٠٥ وهكذا تابع الانتاج تصاعده رويداً رويداً حتى صار ٢٠٠ مليون طن سنة ١٩٣١ و ٢٨٠ مليون سنة ١٩٣٧ ويحتمل ان يكون بلغ ٣٣٠ مليون طن سنة ١٩٤٣ اذ انه يصعب علينا في تلك الحقبة ، اذا لم يكن مستحيلاً ، ان نعرف بدقة مقدار الانتاج لأنه منذ سنة ١٩٣٩ بدا صالحاً للدول ان تخفي ارقامه الحقيقية .

هذه الاهمية الكبرى التي أولاها العالم للنفط يرجع سببها الى ثلاثة امور : التفوق التدريجي للنفط على الفحم الحجري ، والنمو المرحلي للانتاج ، واخيراً المأساة التي ستعترض طريق البشرية تبعاً لنضوب اغلبية آبار النفط .

وتفصيلاً لهذه الامور التي تقتضينا التفصيل نقول : يعود تفوق النفط على الفحم الحجري – في الدرجة الاولى – الى سيولته التي تجعله اكثر عملية واسهل استعمالاً ، عدا عن قوته الحرارية الهائلة فكيلو النفط يولد ١١٠٠٠ سعر بينما لا يولد كيلو الفحم الحجري اكثر من ٧٥٠٠ سعر ، وعلى هذا بلغ مطلوب العالم سنة ١٩٠٥ ، ٢٧٦ مليار سعر بترولي مقابل ٥٦٠٠ مليار سعر فحمي .

وفي سنة ١٩٣٠ ارتفعت هذه الارقام – على التوالي – الى ٢٢٠٠ و ١٤٠٠٠ ، حتى غدا سنة ١٩٤٠ ، ٣٥٠٠ سعر بترولي و ١٨٠٠٠ سعر فحمي ، فبعد ان كانت النسبة ١/٢٠ سنة ١٩٠٥ نراها قد قفزت سنة ١٩٣٠ الى ١/٦ وفي سنة ١٩٤٠ الى ١/٥ .

ونأتي الآن لبيان الامر الثاني ، « النمو المرحلي » للانتاج وهو القانون الذي يحدد نمو الاعضاء او الاشخاص او الشعوب او الجماعات المختلفة ، ويعود الفضل في اكتشافه الى العلامة فرهوست .

يُقسم النمو بموجب هذا القانون الى ثلاث مراحل . المرحلة الاولى – ولنتكلم هنا عن انتاج النفط – مرحلة الانتاج الغزير المتزايد يوماً بعد يوم وهذا يرجع الى استثمار جميع خزانات النفط . وثانياً مرحلة الركود النسبي وفيها تتضاءل غزارة الانتاج شيئاً فشيئاً ، وعندما تقارب هذه المرحلة نهايتها يندر جداً العثور على خزانات جديدة تمدنا بنفطها ، واخيراً تأتي مرحلة الاستقرار – وفيه يصل الانتاج الى نسبة معينة محدودة لا يمكنه تجاوزها – .

على ضوء هذا القانون يمكننا ان نقيس انتاج نفطنا فنعلم اننا حتى سنة ١٩٣٠ لم نكن الا في المرحلة الاولى ، وكانت عصر النفط الذهبي . ثم بدأت المرحلة الثانية تذر قرنها وتشعرنا بوطأتها في الحقبة الممتدة بين سنة ١٩٣٥ و ١٩٤٤ (انظر الشكل الذي يبين سير انتاج النفط العالمي وقد راعينا فيه التقلبات العديدة التي تطرأ على الانتاج من جراء الازمات المؤقتة) فلو تركنا الخط البياني متمادياً لما وصلت هذه المرحلة في ازهى ادوار الانتاج الا الى كمية ادنى من ٦٠٠ مليون طن .

ولتحقيق هذا الامر يجب في جميع الخزانات المستثمرة حالياً ان تواصل انتاجها ، وليس هذا هو الواقع ويا للأسف ، فاننا نرى

امريكا، البلاد التي تزمن للعالم اكبر كمية ممكنة للنفط هي اليوم على شفا هاوية سحيقة القعر ، ولن تطل سنة ١٩٥٠ — اعني بعد ثلاث سنوات — حتى يصير النفط فيها اندر من الكبريت الاحمر ، ومن المحتمل اذا ما جاءت سنة ١٩٥٥ ان يشطب اسم الولايات المتحدة من عداد الدول المنتجة للنفط ، وعلى العالم بعد ذلك ان ينتظر نفس المصير لخزانات الدول المنتجة الاخرى فاذا لم يقيد لنا العثور على خزانات جديدة تعوضنا حيناً من الزمن ما فقدناه فلننتظر عوضاً عن زيادة الانتاج المستمرة — حسب امتداد الخط الطبيعي — هبوطاً مريعاً الى الصفر حسب امتداد الخط البياني الثاني (انظر الشكل) وهنا تكون مأساة النفط .

غروب النفط الامريكي

الطابع الهام الذي يميز اليوم صناعة النفط الاميركية هو — بلا شك — نفاد النفط ، فان اعمق الخزانات تسير نحو النضوب سيراً سريعاً ، وابلغ دليل على ذلك انتقال البترول تدريجياً من الجهات الشرقية بعد نفاده منها الى الجهات الغربية الجديدة . وعلى هذا يمكننا ان نقسم النفط الاميركي في ارضه الى ثلاث مناطق .

منطقة الابالاش في الشرق

وهي اقدم مناطق الاستخراج واحسنها تنظيماً ، نفطها يعد من اجود انواع النفط اطلاقاً ، ولكنها ويا للأسف قد قاربت الانتهاء بعد ان كان يستخرج منها حتى سنة ١٨٨٥ ، ٩٨ ٪ من الانتاج الاميركي الا ان هذه النسبة هبطت الى ٦ في سنة ١٩٣٥ والى ٤ في سنة ١٩٤٠ .

المنطقة الوسطى

كان معدل انتاج هذه المنطقة حتى سنة ١٩٣٠ ، ٦٠ ٪ من النفط الاميركي ، وكان نصيب آبار «كانساس — اوكلاهوما» من هذه النسبة ٤٠ ٪ ، واكثر الباقي كان من انتاج آبار «التكساس» وقد بدأ الانتاج الحقيقي لهذه المنطقة في اوائل هذا القرن ، وبلغ اقصى مداه بابتداء الحرب العالمية الاولى ، وما اطلت سنة ١٩٢٩ حتى كان نتاج هذه المنطقة قد بلغ ٦٧ مليون طن سنوياً الا انه هبط سنة ١٩٣١ هبوطاً محسوساً ثم عاد فارتفع حتى بلغ ٩٠ مليون طن سنة ١٩٣٦ و ١١٥ سنة ١٩٣٨ . واليوم وقد قاربت آبار «كانساس — اوكلاهوما» نهايتها ولم يبق لهذه المنطقة من مصدر للنفط سوى آبار «التكساس» التي بدأ نفطها منذ سنة ١٩٤٠ يخف سريعاً ايضاً . في هذه الاثناء كانت اهمية آبار شاطىء الخليج (*) تزداد شيئاً فشيئاً حتى بلغ نتاجها ٢١ مليون طن سنة ١٩٣٧ اي ما يقارب ١٣ ٪ من الانتاج الاميركي العام .

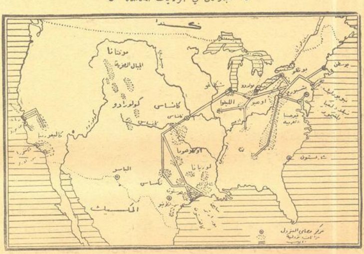
منطقة الجبال الصخرية وكاليفورنيا

الجبال الصخرية آخر زاوية من زوايا النفط في اميركا ، وما خزاناتها المستثمرة حديثاً سوى امتدادات لخزانات كندا . واذا علمنا ان الحفريات لم تبدأ فيها الا سنة ١٨٨٧ في «الكولورادو» وسنة ١٩٠٦ في «ووينغ» وسنة ١٩١٥ في «المونتانا» ، لا دهشنا قلة الانتاج كثيراً اذ انه بلغ ثلاثة ملايين طن سنة ١٩٣٦ ثم ارتفع الى اربعة سنة ١٩٣٧ والى ستة سنة ١٩٣٨ والى عشرة ملايين طن سنة ١٩٤٠ ، ويحتمل ان يكون قد تجاوز ٢٥ مليوناً في سنة ١٩٤٢ .

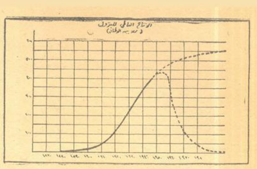
اما حقول كاليفورنيا فهي رغماً عن انها من اقدم حقول الولايات المتحدة النفطية فان انتاجها لم يرتفع الا سنة ١٩٢٩ حين بلغ ٤٠ مليون طن ، وثبت على هذا المعدل عدة سنين حتى جاءت الحرب الاخيرة فقفز الانتاج حتى بلغ ١/٣ الانتاج الاميركي .

ويهمنا ان نعرف ان اغلب مصافي النفط انشئت في «بنسلفانيا» على مقربة من النفط وبقيت هناك ، فكان كلما انتقلت الآبار الى الغرب استطالت الانابيب وبذلك ازدهرت اسواق النفط على الساحل

• البترول في الولايات المتحدة •



(*) اسم السهول الواقعة على حدود ولايتي تكساس ولوزيانا .



الاطلانطيكي ، ولما دخلت التكساس في حيز الانتاج اقيم فيها على شاطىء خليج المكسيك عدة مصافٍ اصبحت هي بدورها سوقاً للنفط ، كما انشئت المصافي على ساحل المحيط الهادىء وكان اهمها مصفاة «سان فرنسيسكو» .

بعد هذا الاستعراض السريع لنفط الولايات المتحدة يصح لنا ان نتساءل عن مستقبل النفط الاميركي ؟ يتضح لنا جلياً ان النفط الاميركي لن يستطيع ان يفي بحاجات الولايات المتحدة الا لبضع سنوات اخر ، فان الحرب اوشكت ان تستنفد جميع خزاناتها ، ويمكننا ان نقول اعتماداً على الحسابات الدقيقة التي قام بها علماء النفط في اميركا ان ما بقي في الخزانات الاميركية حتى سنة ١٩٣٨ هو ٢ر٤ مليار من الاطنان اذا امتصصنا آخر نقطة فيها ، فاذا علمنا ان معدل استهلاك الولايات المتحدة هو ٢٠٠ مليون طن سنوياً اتضح لنا جلياً تلك الهوة السحيقة التي ستتردى فيها اميركا في السنوات القريبة المقبلة حين يتوقف ٣٥ مليون سيارة والكثير من المعامل والاجهزة عن العمل ، ومن هنا نفهم كثرة اهتمام الولايات المتحدة بنفط الشرق الاوسط . ولكن لهذا قصة اخرى نرويها عما قريب .

النفط الروسي

لا يستطيع احد ان ينكر ان الروسيا هي المصدر الثاني من مصادر النفط العالمي ، ولندع جانباً كل الاعتبارات الخارجة عن نطاق بحثنا وننظر الى ذلك النزاع الطويل المستعر بينها وبين الولايات المتحدة في معركة النفط ، والذي سينتهي حتماً بانتصار السوفيت لان خزاناتهم ستواصل انتاجها وقتاً طويلاً بعد فناء الخزانات الاميركية .

هذا عدا عن انه سنة ١٩٠٠ كانت روسيا تعد اولى البلاد المنتجة ، اذ كانت تستخرج وحدها ١١ مليون طن بينما كان الانتاج العالمي كله لا يتجاوز ١٨ مليون طن ، الا ان انتاجها بدأ بالهبوط في اوائل هذا القرن حتى بلغ اربعة ملايين سنة ١٩٢٠ بينما اخذ النفط الاميركي بالصعود فتفتحت عند ذلك اعين الروس وراحوا يهتمون بالتنقيب فيما بين السنتين ١٩٢٥ و ١٩٢٦ في الوقت الذي لم يكن عندهم سنة ١٩٢٤ سوى ٢٠٠ كلم من الآبار ، وبمفعول مشروع السنوات الخمس تضاعف هذا العدد الى ١٢٠٠ كلم سنة ١٩٣٣ عدا عن المصافي والمعامل التي أنشئت لهذا الغرض ، ومنذ ذلك الحين بدأ النفط الروسي بالصعود تدريجياً سنة بعد سنة :

١٩٢١	٤٦٥٠٠٠٠	طن
١٩٢٧	١٠١٦٦٠٠٠	»
١٩٢٨	١٣٣٠٠٠٠٠	»
١٩٣١	٢٢٣٣٥٠٠٠	»
١٩٣٦	٢٧٤١٦٠٠٠	»
١٩٣٨	٣٢٠٠٠٠٠٠	»
١٩٤٠	٣٩٨٠٠٠٠٠	»

وجاء الاحتلال الالماني فلم يضرب صناعة النفط الروسية ضربة قاضية لأن الخزانات الاساسية كانت في مأمن من الغزو . ولم ينس احد في صيف سنة ١٩٤٢ الطويل قرقعة السلاح الالماني في «التاراك» حيث كانت النشرة الاخبارية تردد بايجاز : «قوات الريخ تخوض معارك قاسية امام حقول النفط في غروسني» . ولم يحتل الالمان سوى «مايكوب» ولكنهم لم يستفيدوا من نفطها لان الروس كانوا قد هدموا الآبار قبل تراجعهم .

ومنذ سنوات اخذت روسيا تلتفت الى انعاش اقتصادياتها على نطاق واسع فهدفت في مشروع السنوات الخمس الجديد الى مضاعفة استخراج النفط ليحصلوا على اكبر انتاج عالمي له .

يتحمل القوقاز وحده ٩٠ ٪ من نفط روسيا وتتحمل آبار «باكو» الهائلة وحدها ٧٥ ٪ من مجموع انتاج روسيا كله . وباكو هذه تقع في شبه جزيرة ابشارون تحيط بها الخزانات على شكل حدوة حصان طولها ٦٠ كلم وهذه هي بالتفصيل .

بلخاني رماني

اوسع حقل في روسيا بدىء باستثماره سنة ١٨٧٣ وانتج ٢٥٠ مليون طن ولم ينفد حتى الآن .

سوسراشانك

لا يزال في مراحل انتاجه الاولى والمنتظر ان يفوق سابقه وقد بدىء باستثماره سنة ١٩٣٣ .

ملیار من الاطنان .

اما بترول جزيرة سخالين فقد بولغ به كثيراً مما سال له لعاب اليابانيين الفقراء بالنفط الى حد العدم مع انها لا تحوي في الحقيقة سوى ١٠٠ مليون طن من النفط.

ولقد استطاع الروس ان ينسجوا على غرار الاميركيين فعمدوا الى بناء شبكة من انابيب النفط في ارضهم . وعلى ذلك انشىء اول انبوب يصل بين غروسني وتوابس وطوله ٦٣٠ كلم وانتهي منه سنة ١٩٢٨ ؛ ومنذ سنة ١٩٣٠ صار يؤمن نقل النفط من باكو الى مختلف شواطىء البحر الاسود انبوب «باكو - باطوم» البالغ طوله ٨٢٦ كلم . الا انه بعد تضاعف الانتاج الروسي تضاعفاً محسوساً عجزت هذه الانابيب عن تأمين النقل على الوجه الاتم فسارعوا سنة ١٩١٠ الى مد الانابيب الكثيرة تفادياً للأضرار التي يحدثها مثل هذا العجز .

الى جانب هذه الانابيب يقوم انبوب آخر انشىء سنة ١٩٣٤ يؤمن النقل الى «روستوف» وقد قرر في مشروع السنوات الخمس الجديد مده الى «كياف» من جهة والى «موسكو» من جهة اخرى ، ولما احتدمت الحرب الروسية - الالمانية كان الروس قد بدأوا بانشاء فرع «روستوف - فورونيج» ومن جهة ثانية كان البترول قد بدأ يصل الى خاركوف .

زد على ذلك الانابيب التي انشأهـا الروس في مقاطعة أنبـا في بحر قزوين سنة ١٩٣٨ لتأميـن نقـل النفط الى «مانيتوغورسك» اكبر مركز صناعي لهم في الاورال .

وما دمنا في معرض الكلام عن نقل النفط نقول ان نقل النفط بواسطة السكك الحديدية قد اخذت فائدته تتدنى ، ففي

كراتشكور

استثمر سنة ١٩٣٧ وبعد خمس سنوات اصبح يؤمن انتاج مليون طن من البترول .

سنـالين

هذا الحقل يضـاهي سوسراشانك ويحتمل ان يفوقه اذ ان معدل انتاجه السنوي بلغ اكثر من اربعة ملايين طن .

ميكوبان

يقوم هذا الخزان عـلى بركان وقد استخرج منه منذ سنة ١٩٣٦ ثلاثة ملايين من الاطنان .

مولوتوف

وهـو حديث جداً بدىء باستثماره سنة ١٩٣٥ .

هذه هي اهم حقول البترول في منطقة باكو ولا ننسى جزيرة ارتام - المواجهة لشبه الجزيرة - التي تخبىء لنا خزاناتها مفاجآت مدهشة .

وقد اختلف الجيولوجيون في تقدير الكميات النفطية الموجودة في هذه الآبار الا انهم يعتمدون على رقم اكيـد هو (٥ر٢) مليارين ونصف المليار من الاطنان ولكن الروس لا يطمئنون الي هذا الرقم ويرفعونه الى ثلاثة مليارات ونصف المليار انتاجاً اكيداً يحتمل ان يستخرجوا بعدها ايضاً ملياراً ونصف المليار . ومهما يكن الامر فان خزانات «باكو» وحدها سجلت تفوقها الاكيد على كل ما تستطيع امريكا ان تستخرجه من جميع خزاناتها .

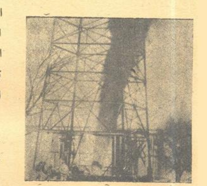
الى جانب النفط القفقاسي هذا تجيء خزانات جبال الاورال وتقوم في مقاطعات «امبا» و«بشكيرى» و«برم» و«فرغانة» وهي بلا شك شيء قليل نسبياً ولكن من الخطأ ان ننظر اليها بعين الاهمال لانها تحتوي على



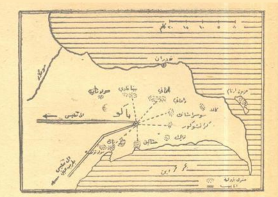
من المحتمل ان يكون في الرمال السوداء بترول



اولى عمليات الحفر



الذهب الاسود يتفجر



خزانات البترول في شبه جزيرة ابشارون

●

سنة ١٩٣٢ نقل بواسطتها ١٢ مليون طن اي ما يعادل ٦٠ ٪ من الانتاج الروسي ، فما جاءت سنة ١٩٤٠ حتى هبطت هذه النسبة الى ٢٩ ٪ هذا من جهة ، ومن جهة اخرى زادت اهمية النقل النهري فيخرج النفط من باكو مخترقاً بحر قزوين الى استراخان وهناك يتحول قسم منه الى الفولجا ليفرغ في «سامارا» و «قازان» او « نيجني نوفغورود » بينما يفرغ القسم الآخر في انابيب « ارمافير » ليتوجه منها الى الاورال كما سبق وقدمنا .

امام هذه الزيادة المطردة للنفط الروسي قررت الحكومة الروسية زيادة انتاجها للسيارات وتوسيع معاملها المستهلكة له مما

●

غابة من آبار البترول في بنسلفانيا



يؤدي الى سرعة النهضة الاقتصادية التي تنشدها روسيا . ان روسيا كانت حتى سنة ١٩٢٩ لا تملك سوى ٦٠٠٠٠ سيارة بينما كانت ٢٥ مليون سيارة تخترق الطرقات في الولايات المتحدة . فليس عجباً بعد ذلك ان نرى اهم ما وجهت اليه العناية في مشروع السنوات الخمس الحالي هو زيادة انتاج السيارات زيادة سريعة بمقدار ما تسمح به امكانياتها ، اذ ان عليها لكي تضاهي الولايات المتحدة انتاج ٤٥ مليون سيارة يتطلبون ١٦٠ مليون طن من النفط سنوياً ، وهنا يعترضنا سؤال لا بد منه : الى متى تستطيع خزانات روسيا ان تمدها بالنفط ؟ .

ان الارقام التي اعطيناها تدل دلالة اكيدة على ان الحالة في روسيا ليست خطرة كما هي في الولايات المتحدة ولكن هذا لا يمنعنا من الاقرار بأن النفط الروسي يتناقص بسرعة لا سيما اذا نظرنا بعين الاعتبار الى تزايد الاستهلاك والى نضوب الخزانات المنتظر بعد خمس عشرة او خمس وعشرين سنة فهذه مدة لا تعد شيئاً بالنسبة لبلاد كالروسيا الا انها بعيدة نوعاً ما ولكن هل يدفع هذا البعد الأجل المحتوم ؟

مصادر النفط العالمية الاخرى

بعد هذا الاستعراض الموجز لمصدرين من مصادر النفط في العالم نأتي الآن على ذكر اهم البلاد المنتجة مرتبة حسب اهميتها بعد ان ضربنا صفحاً عن بلدان الشرق الاوسط .

	معدل الانتاج السنوي	محتوى الخزان	سنة النضوب التقريبية
فنزويلا	٢٨	٣٠٠	١٩٥٨
انسولندا(*)	٨	٦٠	١٩٥٥
رومانيا	٨	٣٠	١٩٥١
المكسيك	٧	قليل جداً	١٩٤٨

يتجمع بترول فنزويلا – الذي لعب ولا يزال يلعب دوراً مهماً في حقل الاقتصاد العالمي لانه يصدر بأجمعه الى الخارج – في احواض « ماراكيبو » و « ماتوران » ، وقد شرع باعمال التنقيب فيها سنة ١٩١٧ الا ان العالم لم يشعر بأهميتها الا سنة ١٩٢٥ .

اما نفط انسولندا فكانت له اهمية كبرى اثناء الحرب في الشرق الاقصى لانها كانت المصدر الوحيد الذي يمد اجهزة اليابان

(*) انسولندا او ارخبيل مالازيا احدى اقسام اوقيانوسيا الثلاثة وتتألف من جزر السوند وسومبايا وتيمور وبرنيو والفيليبين وجاوا وسومطرا والسلاب . (المترجم)

العطشى الى الوقود . ففي سومطرا يتجمع النفط في «برلاك» شمالا على نطاق ضيق وفي «بالمبارغ» جنوباً وحقولها منتثرة مبعثرة الا انها اغزر من حقول الشمال ، وقد بلغ انتاج هذه الجزيرة اربعة ملايين من الاطنان سنوياً اي ما يقارب نصف نفط انسولندا بأجمعه .

فاذا جئنا الى جزيرة جاوا وجدناها اقل غنى من سابقتها اذ لا يتجاوز انتاجها ٥٠٠٠٠٠ طن وأهم حقولها « كاويغان » وعلى العكس منها جزيرة برنيو فان نفطها من الاهمية بمكان عظيم ، وتقوم معظم خزاناتها الى الشرق منها في المنطقة الهولاندية عند سامريندا وباليك بابان وقد كانت تؤمن انتاجاً سنوياً قبل الحرب قدره مليون طن .

واخيراً يأتي نفط جزر تيمور وسيرام والسالاب والفيليبين وهو ضئيل جداً لا يؤبه له .

اما فرنسا فهي افقر من ايوب بالنفط فان خزانات «باشالبرون» التي تحوي مليون طن من النفط لا تنتج سوى ٨٠٠٠٠ طن سنوياً . ولم يستخرج من خزان « غابان» الا الشيء القليل .

واما المانيا فهي احسن نوعاً ما من فرنسا حالاً ، اذ انها بعد استثمار جميع خزاناتها الهزيلة تنتج ٤٥٠٠٠٠ طن سنوياً ومثل هذا المقدار الضئيل لا يعد شيئاً بالنسبة لقارة كأوروبا واذا تركنا جانباً النفط الروماني لمدة من الزمن فاننا نجد امامنا تلك الحقيقة المؤلمة : قارة لا نفط فيها .

وقد كثر الكلام اخيراً عن خزانات الألسكا ، فقد اعلن قبل الحرب الاخيرة عن القيام بعدة حفريات لأربع خزانات على شاطئ المحيط الهادي ، واثنين على شاطئ المحيط المتجمد الشمالي وبالغوا في الحديث عن اهميتها . والحقيقة ان منطقة «كاتالا» الجنوبية هي وحدها المهمة والتي يمكن الاعتماد عليها في الألسكا .

المعجزة في الشرق

لن ينقذ مؤقتاً كرتنا الارضية من الشلل الذي سيصيبها سوى العثور على خزانات نفطية جديدة تقر الامور وتحيي الامل ، وهذا ما حدث فعلا فقد تكشف بطن الارض في الشرق عن ثروة هائلة قلبت في السنوات الاخيرة اوضاعه الاقتصادية واثارت المنافسات بين الانجليز والامريكان والروس ، مما يؤكد لنا اهمية هذا المغنم العظيم الموزع على ثلاثة خزانات كبرى هي : العراق وايران والجزيرة العربية السعودية .

والحق ان وجود البترول في العراق لا يعد اكتشافاً جديداً اذ أنه معروف منذ اقدم العصور . ألم تحدثنا التوراة عن النيران التي لم تخمد اوارها في نينوى ؟ . ومع ذلك لم يدخل العراق في عداد الدول العالمية المنتجة الا في سنة ١٩٢٨ ، حتى ان المصورات الجغرافية لسنة ١٩٣١ التي كان يعتمد عليها التلاميذ قبل الحرب لم تنوه به .

بدأت اولى الحفريات في «بابا كركر» في قطاع كركوك وسرعان ما اعطت البئر ١٠٠٠٠ طن يومياً مما اثار الدهشة ودعا الى التفكير في مشكلة نقله من هذه البقعة الضاربة في الرمال ، لهذا لم تظهر اهمية كركوك الا بعد ان ربطت بالبحر المتوسط بواسطة الانابيب .

لم يكن الانتاج العراقي سنة ١٩٢٨ يتجاوز ٢٥ الف طن سنوياً ولم يمض على ذلك عشر سنوات حتى تضاعف الانتاج عشرة اضعاف فبلغ سنة ١٩٣٧ ، ٤١٦٠٠٠٠ طن ، فما هي بعد هذا امكانيات كركوك ؟

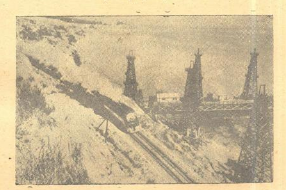
لم يقدر العلماء الاختصاصيون الى الآن محتويات هذه الخزانات الا انهم يجزمون انها عظيمة للغاية حتى ان بعضهم لا يتردد في الاعتقاد بأنها من اغنى الخزانات العالمية وتحتوي على مقدار هو اكبر منه في اي خزان آخر عرف على ظهر الارض .

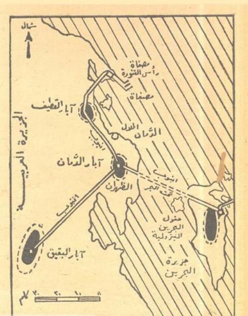
وقد اكتشف عدة خزانات اخرى في العراق عدا كركوك اهمها في «القيارة» على نهر دجلة الذي دأب على تأمين ٥٠٠٠٠٠ طن انتاجاً سنوياً ، زد على ذلك حقول « بالخانة » و « خانقين » .

ومما يميز الآبار العراقية عن غيرها هو وجود النفط فيها على

●

آبار بترولية في البحر





عمق اقل من الف متر على وجه العموم وهذا شيء قليل اذا قيس بغيره من الخزانات العالمية .

ويهمنا ان نذكر اخيراً ان النفط العراقي كان حتى سنة١٩٣٩ في مرحلته البدائية فقد وجدت عدة دلائل تبرهن عن وجوده على مقربة من الفرات وحول مدينة البصرة .

فاذا انتقلنا من العراق الى ايران نجدها اقل غنى منه نوعاً رغم انها عرفت قبله كمصدر كبير من مصادر النفط العالمية ، فقد استثمرت آبارها سنة ١٩٠٨ ولم تأت سنة ١٩٠٩ حتى كانت تنتج سنوياً ٤٤٠٠٠ طن ثم ارتفع الى ٥٨٠٠٠٠٠ سنة ١٩٣١ والى ٨٤٠٠٠٠٠سنة ١٩٣٦ والى ١٢٧٠٠٠٠٠سنة ١٩٤٠ واهم خزاناتها «ميدان النفطون»(*) على مسافة ٢٢٠ كلم شمالي الخليج الفارسي الذي ظل يؤمن لعدة سنوات انتاجاً منتظماً حتى ان احد آباره انتج مليون طن في السنة . والفضل في هذ السبق يعود الى اسباب جغرافية موافقة اذ ان النفط يختلط مع كاس « أسمري » الذي يمنع تسربه الى جوف الارض ويحفظه الى زمن طويل .

الى جوار هذا الخزان عثر على عدة خزانات اخرى في مختلف انحاء ايران استثمرت بأجمعها ونافست بذلك النفط العراقي – الذي كنا اشرنا الى انه لم تقدر قيمته بعد – فاذا قدرناه بحالته الحاضرة بـ ٣٠٠ مليون طـن لا نعدو الحقيقة . ولكن اذا دام ازدياد الانتاج الايراني على هذا المنوال سنة بعد سنة فان ايران ستصبح في زمن قريب وقد اقفرت خزاناتها .

النفط السعودي

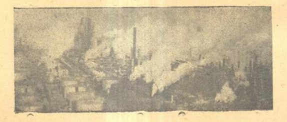
ذكرنا مصدرين من مصادر النفط الشرقي وها نحن الآن بصدد الثالث وهو اهمها شأناً واخطرها فعلاً : ونعني به خزانات البحرين وآبار الجزيرة العربية وعلينا هنا ايضاً ان نقف مكتوفي الايدي امام مقدار محتوياتها لانه لا يزال سراً من الاسرار .

لم يخطر ببال احد قبل الحرب امكـانية وجود النفط في الجزيرة العربية ، اللهم الا خزان البحرين الذي لم يستثمر تمام الاستثمار الا سنة ١٩٣٦ اذ انه انتج سنة ١٩٣٥ ، ١٧٤٠٠٠ طن ثم تزايد الانتاج تدريجياً الى ٦٤٠٠٠٠ سنة ١٩٣٦ والى ١١٠٠٠٠٠ سنة ١٩٣٧ والى ٣ ملايين من الاطنـان على ابواب الحرب العالمية الاخيرة .

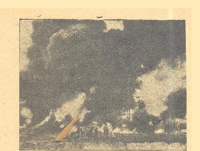
اما نفط الشاطىء السعودي فظل مجهولاً حتى سنة ١٩٤٣ حين اعلم الباحثون الاميركيون حكومتهم بوجود خزانات عظيمة على الساحل المواجه لجزيرة البحرين واختلقوا احصاءات لا ترتكز الى اساس تدل على وجود مليارات من الاطنان تمرح تحت الصحراء . فلم يجد الاميركيون بداً – تجاه هذا الامر – من الاهتمام بهذا

●

احدى كبريات مصافي البترول في العالم



(*) لم تتمكن المفوضية الايرانية في بيروت من اجابتنا الى التحقق من اسمي البلدين الايرانيين الواردين في هذا المقال فاضطررنا الى تصويرهما عن الحرف اللاتيني ، وبالمناسبة نتقدم بخالص الشكر للمفوضية العراقية والمفوضية الملكية السعودية لما اظهرا من ود وما قاما به من مساعدة .
(المترجم)



اندلاع النيران في آبار البترول

•

المصدر الجديد ولم يصعب عليهم احتكاره لان البلدان الاخرى ظلت طويلا حتى تحققت من قيمته كما انهم ارضوا العاهل السعودي نفسه بعد ان بينوا له الغنى الهائل الذي سترتع فيه بلاده نتيجة لاستثمار كنوزه .

وسرعان ما رسمت الخطط الهائلة لجعل الارض صالحة فكان منها مدينة الظهران

•

ثوب واق لاخماد نيران البترول



الغارقة في الرمال، التي ربطتها انابيب النفط بثلاثة حقول بدىء باستثمارها ، القطيف في الشمال ، والدمام في الوسط ، والبقيق في الجنوب، كما مد انبوب تحت البحر ليصلها بحقول البحرين . وهذا كله ان هو الا نقطة البدء، سيلحقها تعبيد الطرق وانشاء الحواضر واقامة المطارات، ولن تمضي عشر سنوات حتى نرى الظهران غدت في عداد المراكز الصناعية الكبرى في العالم .

وقد اعلنها المهندسون الامريكيون حرباً على جفاف الصحراء لتأمين وصول الماء اليها كما ان الاخصائيين يشرفون على انشاء سكة حديد يبلغ طولها ١١٠٠ كلم تصلها بالمدينة وسيكون لها في المستقبل شأن خطير عندما تتصل بخط انقرة—باريس .

يسكن الظهران اليوم عشرة آلاف نسمة وفيها مستشفى ومدارس متعددة واحواض للسباحه ومسرح للتمثيل ... ومطار .

والصورة الاخيرة اقولها : ان اهمية خزانات الظهران لم تعرف بعد ولو على وجه التقريب الا ان كثرة الانشاءات ووفرة الاستعدادات التي تشغل الاميركين لعشرات السنين امر له معناه .

خاتمة

ان تصور العالم الحديث بدون المحركات ذات الانفجار الداخلي التي لا تعمل الا بالنفط امر يبدو لنا مستحيلا ، ولكن هذا هو المصير المؤلم الذي يتربص بنا، وليس الآن مجال للخداع فالاميركيون اليوم ليس لديهم نفط تقريباً وما تسربهم الى الظهران الا محاولة كبرى لاطالة حكمهم في مملكة النفط فان آبار العراق والظهران مهما كانت غنية فستنضب سريعاً امام الاستهلاك النهم وبذلك يؤخرون وقوع الكارثة الا انه لا يمكنهم تفاديها .

والى ان نصل الى ذلك اليوم المؤلم فان الاطماع العالمية لن تترك الشرق الاوسط — آخر المصادر العالمية للنفط — حراً، وعلينا ان لا نشغل انفسنا بوظيفة النفط في حرب مستقبلة لان احداً لا يستطيع ان يؤكد لنا بأن الحرب المقبلة ستكون حرباً آلية تتطلب عشرات الملايين من أطنان النفط . لنلاحظ قليلاً الدول الحاضرة نر ان النفط هو عماد صناعتها وان فقده سيؤدي الى انقلاب قد لا يتصوره اكثر الناس ، فلا يمكن بعد اليوم ان نعثر على آبار جديدة، وان وجدت فعلاً فلن يكون من عملها الا ان تطيل قليلاً عمر المحكوم عليه بالموت .

ولرب قائل يقول : ومالنا لا نستبدل بالنفط قوة محركة اخرى .؟

اذا استبعدنا مبدئياً القوة الذرية كما تبدو لنا في حالتها الحاضرة، لا يبقى امامنا سوى الحل النهائي الوحيد وهو البترول الصناعي فان مناجم الفحم الحجري باستطاعتها ان تمدنا به لعدة قرون . الا ان هذا ليس سهلا فان عملية انضاجه بوسائلنا الصناعية الحاضرة ، معقدة جداً عدا عن كثرة تكاليفها مما يؤدي الى غلاء ثمنه غلاء فاحشاً ..

سأتقدم بحكم الزمان الى مجلس من مجالس احفادكم وهم يسترجعون حديث البترول عندما كان يموج في باطن الارض بحالته الطبيعية . اتراهم يتحدثون عن العصر الذهبي للانسانية ؟ .

مصطفى القصاص



٢٧ آب سنة ١٩٤٧ — تكلم الاستاذ فارس الخوري في مجلس الامن مناشداً المجلس تحقيق اماني مصر بالجلاء ووحدة وادي النيل .

— رفض مجلس الامن الاقتراح البلجيكي بعرض القضية الاندونسية على محكمة العدل الدولية .

— وافق المجلس الوطني الفرنسي على تأليف برلمان في الجزائر .

— افتتح مؤتمر الاتحاد الاوروبي الذي تشترك فيه عشر امم اوروبية ومن بينها المانيا والنمسا .

٢٨ — لم يوافق مجلس الامن على اقتراح البرازيل بشأن استئناف المفاوضات بين مصر وبريطانيا .

— اصدر رئيسا جمهوريتي لبنان وسوريا المجتمعان في بيت الدين قراراً مشتركاً يعربان فيه عن استنكارهما لمشروع سوريا الكبرى .

— قدم قوام السلطنة استقالته من رئاسة الوزارة الايرانية .

٢٩ — خذل مجلس الامن مشروع كولومبيا وأبقى القضية المصرية في جدول اعماله بناء على اقتراح المندوب الروسي .

١ ايلول — تم في دمشق توقيع اتفاقية البترول السعودي بين سوريا و«التابلاين» .

— نال الشيوعيون في انتخابات المجر أكثرية ساحقة .

— اصدرت لجنة التحقيق تقريرها عن فلسطين موصية بتقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية .

٢ — اصدرت الهيئة العربية العليا في فلسطين بياناً رفضت فيه تقرير لجنة التحقيق الدولية .

— نشبت ثورة بالاكوادور لقلب حكومة الكولونيل كالورس مانشينو .

٣ — قرر المهاتما غاندي الصيام التام الى ان تهدأ الحالة العامة في كلكتا وتنتهي الاضطرابات بين المسلمين والهندوس .

٤ — ارسل مجلسا النواب والاعيان العراقيان برقيات احتجاج الى وزراء خارجية الدول الكبرى احتجاجاً على تقرير لجنة التحقيق الدولية بشأن تقسيم فلسطين .

— جرت مباحثات بين النقراشي باشا ووزارة الخارجية الاميركية لمنح مصر مساعدات عسكرية واقتصادية .

٥ — قام نصف مليون عامل بتظاهرة في باريس احتجاجاً على غلاء المعيشة .

— نال المسيو راماديه الثقة ثم استقال على اثرها لان حزبه الخاص والنواب الشيوعيين قد خذلوه .

— انهى المهاتما غاندي صيامه بعد ان القى المتقاتلون سلاحهم امامه .

٨ — استأنف مجلس الامن النظر في النزاع المصري الانكليزي برئاسة الرفيق غروميكو .

٩ — قدمت الوزارة التركية استقالتها وقد عهد الى السيد حسن سقا بتأليف الوزارة الجديدة .

— اعترف المرشال شان كاي شك في خطابه ان الشيوعيين اصبحوا غاية في القوة العسكرية بحيث تمكنهم من قلب الحكم في الصين .

— قام المرشال ستالين بجولة تفتيشية على القوات السوفياتية في البحر الاسود .

١٠ — رفض مجلس الامن مشروع الصين بشأن النزاع البريطاني المصري ، وأجل القضية الى اجل غير مسمى .

— عرضت فرنسا على الهند الصينية الاستقلال السياسي ضمن نظام الاتحاد الفرنسي .

١١ — قامت المظاهرات في القاهرة والاسكندرية على اثر النتيجة السلبية التي اسفرت عنها القضية المصرية امام مجلس الامن ، وقد حاول المتظاهرون احراق القنصلية البريطانية .

١٢ — زار اسطول اميركي مؤلف من حاملة طائرات وطرادة وخمس مدمرات مدينة ازمير التركية .

— جاء في خطاب سفير الولايات المتحدة في ايران ان بلاده تؤيد حق ايران بحرية التصرف بمواردها النفطية فاذا ما وجهت التهديدات الى ايران اعتبرت الولايات المتحدة نفسها معنية بالامر .

١٥ — ارسلت وزارة الخارجية البريطانية مذكرة احتجاج الى الحكومة اليوغوسلافية على المعاملة التي يلاقيها اعضاء القوات العسكرية البريطانية في منطقة تريستا .

١٦ — افتتحت الدورة العادية للجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة .

— عقدت اللجنة السياسية التابعة لجامعة الدول العربية اولى اجتماعاتها بصوفر في لبنان .

— اصبحت معاهدات الصلح مع رومانية وبلغاريا وفنلندا نافذة منذ هذا اليوم .

١٧ — اتهمت جريدة «الازمنة الحديثة» التي تصدر عن وزارة الخارجية السوفياتية ، اميركا وبريطانيا بانهما تمدان اسبانيا الفرنكية بالاسلحة .

— وجه الحاج امين الحسيني رسالة الى الشعب الاميركي يوضح له فيها قضية فلسطين .

— وافق صندوق النقد الدولي على منح وزارة المالية البريطانية ستين مليون دولار بمقابل ليرات استرالينية .

١٨ — عارض الاستاذ فارس الخوري في هيئة الامم المتحدة مشروع انشاء لجنة خاصة لمعالجة قضية فلسطين واقترح اشراك اعضاء من اللاجنتين السياسية والقانونية فيها وقد ايده مندوب بريطانيا .

١٩ — اتخذت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية مقررات خطيرة لدفع العدوان عن مصر وفلسطين .

— عزمت بريطانيا على بيع قسم آخر من ذهبها لتشتري به دولارات من الرصيد المالي الدولي .

— أثار خطاب الرفيق فيشنسكي في الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة استياء بالولايات المتحدة .

٢٠ — عقدت الوزارة البريطانية اجتماعاً سرياً حددت خلاله الموقف الذي ستتخذه بريطانيا عندما تنظر الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة في تقرير لجنة التحقيق الدولية بشأن المسألة الفلسطينية .

٢٢ — خطب مندوب بريطانيا في هيئة الامم المتحدة مؤيداً مارشال ومشجعاً خطاب مندوب روسيا الذى اعلن فيه ان الولايات المتحدة وبريطانيا هما من مروجي الحروب .

٢٣ — تكلم الامير فيصل آل السعود في الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة طالباً منها الا تتأثر بأقوال الجنرال مارشال بصدد قضية فلسطين .